

روائع الأدب العالمي للنساء

جين آير

شارلوت برونتي



جيت اير

تأليف : شارلوت برونتي
مبسط : إقليدس أتوود

ترجمة : صبرى الفضل
مراجعة : مختار السويدي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

روائع الأدب العالمی للناشئین

محمد بن ابر

المشرف على التحرير : مختار السويقي

الاخراج الفني : انعام صالح

المؤلفة

ان قصة الأخوات برونتي فى الأدب الانجليزى قصة عجيبة تبدأ بالأب (١٧٧٧ - ١٨٦١) الذى جاء من أيرلندا ليصبح راعيا بالكنيسة الانجليزية فى هيوارث . وهى جزء موحش من يوركشير ، ويتزوج من امرأة من كورنوال (*) . تموت بعد عشر سنوات من زواجهما ، تاركة له أطفالهما الستة : ماريا ، اليزابيث ، شارلوت ، باتريك ، اميلى ، آن .

ويبدأ فى تربيتهم وتعليمهم بنفسه ، الى أن

(*) مقاطعة فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى من انجلترا .

يلحق بناته بمدرسة داخلية رخيصة في كوان بريدج ،
خاصة لتعليم بنات رجال الدين . ولقد وصفت
شارلوت هذه المدرسة في الفصول (٦ - ١١) من
« جين إير » ، ٠٠ وهلين برنز في القصة هي صورة
مطابقة لأخت شارلوت الكبيرة ماريا ، وما قابلته من
معاملة قاسية بالمدرسة .

ذهبت شارلوت بعد ذلك الى مدرسة أخرى في
روهيده وهي المدرسة التي أصبحت مدرسة بها فيها
بعد . ثم سيطرت عليها فكرة ادارة مدرسة خاصة .
فذهبت الى بروكسل لتدرس اللغة الفرنسية ، وهي
ترسم صورة لهذه الفترة من حياتها في روايتها
« فيليت » . وفشلت مدرستها ، وبدأ والدها يصاب
بالعمى ، وأصبح أخوها سكيراً مدمناً . وأصيبت أختها
أميل بمرض الإرث .

وكتبت شارلوت في هذه الاثناء « جين إير » ،
كذلك رواياتها الأخرى ، وهي « البروفيسور »
و « شيرلي » و « فيليت » ، ٠٠ وتزوجت من آرثر نيكرلز
وهو قسيس بالكنيسة الانجليزىة ثم ماتت بعدها

بعام واحد في ١٨٥٥ ، عندما بدت السعادة تظهر
أخيرا في الأفق ، تاركة أبيها المعجوز من ورائها في
هيوارث في عزلة لا فرار منها .

ولدت شارلوت برونتي في ٢١ أبريل ١٨١٦ ،
كاتبة بالمولد . ولكن كان عليها أن تتعلم أسلوبها .
أسلوب الواقع وراء نطاق الخبرة ، لا وراء نطاق المعرفة
الإنسانية .

كانت جين إير تبدو في وقتها المرأة العصرية
الحديثة جدا لدرجة جعلت مسز جاسكيل ، التي تعتبر
من الرائدات في تحرر المرأة ، مندهشة بما قد يسمى
بإيجابية الحب . فجين إير تعتبر رواية فريدة للعصر
الفيكتوري ، فالنقاوة فيها أصبحت مشبوبة بعاطفة
صريحة .

لقد ذهبت « امرأة الرجل » وجاءت هنا « امرأة
نفسها » تجابه الرجل على أرضية متساوية ، بمعنى أن
جين إير هي الرواية المعاصرة الأولى التي تطوق حياة
امرأة عادية بسيطة بقصة رومانسية ، وضعتها المرأة

المتردة المتحررة فى شعورها وفى التحدث بما تشعر
به . وجاءت بكل وضوح الى الأدب الانجليزى المعاصر
من بيت القس المنعزل فى هيوارث .

المترجم

الفصل الأول

جيتسهيد

لم يكن بالامكان التريض في ذلك اليرم . في الحقيقة لقد قمنا بالسير صباحا لمدة ساعة في الحديقة فوق أوراق أشجارها المتساقطة . ولكن منذ الغداء جلبت ريع الشتاء الباردة معها سحباً قاتمة وأمطاراً غزيرة ، فكان من المستحيل الخروج من البيت .

كنت مسرورة بذلك . اذ لم أكن أحب السير طويلاً خصوصاً في الأمسيات الباردة . وكان من المزعج لدى أن أعود للبيت عند شفق الغروب بأطراف متجمدة وقلب مثقل بتوبيخ المربية بيسي ، وشعور

بضعف جسمي الصغير بالمقارنة مع اليزا وجون وجورجيانا ريد .

ان اليزا وجون وجورجيانا يتجمعون حول أمهم في حجرة الاستقبال بمنزلهم بجيتسهيد الآن . وهي تجلس في راحة بجانب المدفأة مع من تحبهم من حولها . وتبدو عليها السعادة التامة ، وهم لا يتشاجرون ولا يتناحرون أثناء ذلك . ولقد طردتني من صحبتهم ، قائلة انها تأسف لاضطرارها لابعادي ، الى أن أحاول بتشكيل جدى في تحسين طباعى لآكون صدوقة جذابة . لما أنها لا يمكنها أن تسمح لى بالمباهج الخاصة بالاطفال الصغار السعداء القنوعين .

فاستفسرت منها :

– ولكن ، ماذا فعلت ؟

– جين ، انا لا أحب الاسئلة أو الاعتراضات .

ولا يجب على الاطفال أن يتكلموا مع الكبار بمثل هذه الطريقة . . . اجلسى عندك واسكتى الى أن يمكنك التحدث بشكل مقبول .

كانت غرفة تناول الافطار تلى غرفة الاستقبال ،
فزحفت اليها • وكانت تضم ارففا للكتب ، فاستحوذت
على كتاب فى الحال بعد أن تأكدت أنه مليء بالصور •
وتسلقت على حافة النافذة ورفعت قدمي وجلست عاقدة
ساقى وسحبت الستائر الحمراء ، فشعرت بحماية
مزدوجة •

كانت كل صورة تحكى قصة ، غالبا غامضة على
ادراكي الصغير ، ومع ذلك كانت دائما مسلية بشكل
كبير تماما كقصص بيسي التى تبدأ فى روايتها أحيانا
فى أمسيات الشتاء عندما تكون معتدلة المزاج ، فيتعلق
انتباهنا الشغوف بذكريات الحب والمغامرات المأخوذة
من الاغنيات والقصص القديمة

كنت سعيدة والكتاب على ركبتي • لا أخشى شيئا
سوى المقاطعة والتى جاءت سريعا جدا ، اذ نادانى
جون ريد ، ثم توقف ، اذ وجد الغرفة خالية ،
وصاح :

- اين هي ؟ لقد اختفت ؟

ثم اخذ ينادى على اختيه :

- ليزى ! جورجى ! جين ليست هنا . اخبرا
ماما بانها خرجت فى المطر ! .. هذه الحيوانة
السيئة !

فقلت فى نفسى :

- من حسن الحظ اننى سحببت الستارة .

وتمنيت من كل قلبى ألا يكتشف مخباى . وما
كان له أن يكتشفه بنفسه ، حيث انه ليس حاد البصر
ولا الذكاء ، ولكن اليزا اطلت براسها من الباب وقالت
على الفور :

- انها فوق حافة النافذة ، بالتأكيد ، يا جون !

فخرجت فى الحال لأننى ارتعشت من فكرة أن
يجرنى جون من وراء الستارة ، وقلت مستفسرة :

- ماذا تريد ؟

فاجاب :

— قولى ، « ماذا تريد يا سيد ريد ؟ » أريدك أن
تأتى الى هنا .

وأجلس نفسه على كرسى ذى مساند ، وأشار
الى أن أقرب وأقف أمامه .

كان جون ريد تلميذا فى الرابعة عشرة من عمره ،
لديه مرض جلدى ، وملامح خشنة وذراعان وساقان
غلاظ . كان المفروض أن يكون فى المدرسة حاليا ،
لكن والدته قد أخذته البيت لشهر أو اثنين بسبب
صحته الرقيقة . لقد قال أستاذ المدرسة ان حالته
كانت نتيجة شراسته ، ولكن قلب أمه رفض هذا
الرأى القاسى ، وفضلت أن تعتقد أنه أجهد نفسه
أكثر من اللازم وأصابه الحنين للبيت .

لم يكن جون مغرما بأمه وأختيه ، أما أنا فكان
يكرهنى . وكان يعاملنى معاملة سيئة ويعاقبنى
لا مرتين أو ثلاثة فى الاسبوع ولا مرة أو مرتين فى
اليوم ولكن باستمرار . ولم أجد من يحمينى منه .

فالخدم لا يحبون الاساءة لسيدهم الصغير ، أما مسز
ريد فلا يبدو عليها مطلقا أنها رآته يضربنى أو سمعته
يهيننى ، رغم أنه فعل ذلك مرارا فى حضورها .

وكونى بالتعود أصبحت مطيعة لجون ، وقفت
أمام كرسيه حيث أشار لى . وقضى حوالى ثلاث دقائق ،
يخرج لى لسانه . وكنت أعلم أنه سيضربنى فى الحال ،
وأثناء انتظارى فى فزع لضربته ، أخذت أتأمل فى
مظهره المقزز القبيح . وتعجبت ان كان قد قرأ افكارى
على وجهى ، لأنه فجأة وبدون كلام ضرب ضربته بحدة
وخسونة ، وكنت أقع الا أننى تماكنت توازنى
وتراجعت خطوة الى الخلف من كرسيه . وقال :

- هذه الضربة لمساءلتك ماما ، ولتسللك مثل
اللس خلف الستائر ، وللنظرة التى كانت فى عينيك
منذ دقيقتين ، أيتها الفارة !

كنت قد تعودت على اهانات جون ريد لدرجة انى
لم تكن لدى فكرة الرد عليها على الاطلاق . وكان همى
هو كيف استقبل الضربة التى ستتبع ذلك بالتأكيد .
وسال :

- ماذا كنت تفعلين خلف الستارة ؟

- كنت أقرأ .

- ارينى الكتاب !

عدت الى النافذة وأحضرت الكتاب فى صمت .

- ليس من حقد أن تأخذى كتبنا ! ماما تقول

انك قريبة فقيرة . ليس لديك مال . لم يترك والدك

شيئا . يجب أن تتسولى ولا تعيشين هنا مع أطفال

أناس محترمين مثلنا ، وتأكلين نفس الطعام الذى نأكله

وترتدين ملابس على نفقة أمنا . . . والآن سأعلمك

لاستعمالك لكتبى لأنها ملكى . كل المنزل ملكى أو

سيكون فى سنوات قليلة ملكى . اذهبى وقفى بجانب

الباب ، بعيدا عن المرايا والنوافذ .

وفعلت ذلك ، غير موقنة لنيته فى البداية ،

ولكن عندما رأيته يرفع الكتاب بهدف تصويبه على ،

قفزت جانبا صارخة بانزعاج ، مع ذلك ليس بالسرعة

الكافية . طار الكتاب الثقيل ولطمنى وسقطت ضاربة

رأسى فى الباب . وأخذ الدم ينزف من رأسى مع السم

حاد • لقد زاد خوفى الشديد عن حده وتحول الى شعور آخر ، فقلت :

- ولد شرير قاس ! انك مثل القاتل •• انك مثل سائق العبيد •• انك مثل حكام روما القديمة الاشرار !

فصرخ قائلا :

- ماذا ! ماذا ! هل هى تقول ذلك لى ؟ هل سمعتها يا اليزا ، وانت يا جيورجيانا ؟ سأخبر ماما ! لكن أولا ...

وركض نحوى مباشرة • وشعرت به يمسك بشعري وبكتفى • لقد انقض على بشكل خطير ، فاعتقدت بأنه قاتل حقا • واحسنت بنقط من الدم تسيل من راسى على رقبتى • وقهر احساسى بالمعاناة للحظة احساسى بالخوف ، فقاومته بجنون •• لا أعرف ماذا فعلت بيدي بالضبط ، لكنه دعانى قائلا : « فارة ! فارة ! » وبكى بصوت مرتفع • كانت النجدة قريبة

منه . فلقد ركضت اختاه بحثا عن مسز ويد التي كانت
بالطابق العلوى . فحضرت فى الحال تتبعها بيسى ،
ووصيفتها أبوت ، وأبعدانا عن بعضنا ثم سمعت هذه
الكلمات :

- أوه ! يا للشريرة الصغيرة التي تهجم على السيد
جون هكذا !

- هل رأى أحد مثل هذه الأخلاق الشريرة !
ثم ألقت مسز ويد أمرها :

- خذوها الى الغرفة الحمراء واقفلوا عليها
الباب .

الفصل الثانى

الغرفة الحمراء

فاومت طوال الطريق • كان هذا شيئا جديدا
بالنسبة لى ، وحدثا أثار الرأى السيء وقواء بشكل
كبير حتى أن بيسى وأبوت امتنعتا عن مناصرتى •
- امسكا ذراعيها • انها مثل القطعة المجنونة •

وصرخت الوصيعة :

- يا اللعار ! يا اللعار ! ما هذا التصرف الفظيع
يا آنسة جين ، تضربين سيذا صغيرا ، ابن ولية أمرك
... سيدك الصغير !

- سيدى ! كيف يكون سيدى ؟ هل أنا
خادمة ؟

- كلا ، انك أقل من خادمة ، لانك لا تفعلين
شيئا لتعيشين منه .. اجلسى عندك وفكرى فيما
اقترفتيه من شر .

عندئذ أوصلانى الى الغرفة التى ذكرتها مسز
ريد ودفعانى فوق كرسى فيها ، قفزت عنه واقمة
كالزمبرك ، فمعتنى سواعدهما فى الحال ، وقالت
بيسى :

- اذا لم تجلسى ساكنة فسنربطك فى الكرسى .
مس ابوت ، أعيرينى حزامك !

فصرخت :

- لا ، لا تفعلى ذلك . اننى لن أتحرك !

فقالت بيسى :

- اذن ، لا تتحركى على الاطلاق .

وعندما تأكدت من أننى أصبحت بالفعل أحدا
رفعت يديها من على . ووقفت مع أبوت عاقدة الأذرع ،
وأخذتا تنظران الى وجهى بجهامة وريبة . وقالت بيسى
أخيرا وهى تلتفت للوصيفة :

- انها لم تفعل ذلك مطلقا من قبل !

فكانت الإجابة :

- لكن ذلك كان يكمن فى داخلها دائما . لقد
أخبرت الأنستين برأى عن البنت ، والأنستين وافقتا
معى . انها كائن مخادع .

لم تجب بيسى ، ولكنها بعد فترة خاطبتنى
قائلة :

- يجب أن تعلمى يا آنسة بانك لابد أن تكونى
ممتنة لمسز ريد . فهى تمولك ، واذا طردتك ، فمس
سيرعاك ويهتم بأمرك ؟

لم يكن عندى ما اقوله ردا على ذلك . فهذه
الكلمات ليست جديدة على . فلقد سمعت من قبل
اقتراحات عديدة من نفس النوع ، جارحة ومؤلة جدا

لكبريائي ، ولكنني لم أكن أعياها تماما . ثم قالت
أبوت :

- ولا يجب عليك أن تضع نفسك على قدم
المساواة مع الأنستين والسيد ريد لأنهم سمحوا لك
بكل عطف أن تعيش معهم . فهم سيكون لديهم مال
وفير ، وانت لن يكون لديك شيء . . . فمن واجبك اذن
أن تخضعي لهم وتحاولي أن ترضيهم !

واضافت بيسي بنبرة أكثر اعتدالا :

- ان ما تقوله لك هو من أجل صالحك . .
اجتهدي أن تكوني مفيدة لهم . وعندئذ ربما يكون لك
نصيب في المعيشة هنا . لكن اذا أصبحت نائرة العاطفة
ووقحة فسوف يطردونك ، أنا متأكدة من ذلك .

وقالت أبوت :

- بالاضافة الى أن الله سوف يعاقبك .
ربما ينزل عليك غضبه فتموتين أثناء غضبك . . تعالى
يا بيسي ، اننا سنتركها . وادعى ربك يا آنسة جين .

لأنك اذا لم تكونى آسفة بسبب آثامك ، فسوف ينزل عليك شيئا سيئا من المدخنة لياخذك .

وذهبتا وأغلقتا الباب بالمفتاح . كانت الغرفة الحمراء عبارة عن غرفة مربعة الشكل ، مؤتة بأثاث من الخشب الغامق ، مع سجادة حمراء ثقيلة وسرير ضخمة وستائر حمراء دائما مسدلة على النوافذ . كانت هذه الغرفة باردة لأنها من النادر ما يشعلون فيها المدفأة وكانت ساكنة لأنها كانت بعيدة عن غرفة الاطفال والمطبخ . وكانت وقورة لأنها من النادر أن يدخلها أحد . . . وهنا مات مستر ريد من قبل تسع سنين .

لم أكن متأكدة من أنهما قد اغلقا الباب بالمفتاح ، فعندما جاءتنى الجراءة على الحركة ، قمت وذهبت لأرى . آه ، أجل ! فلا يوجد سجن أكثر احكاما . . !

كان رأسى لا يزال يؤلمنى ولا يزال يدمى من اللطمة والسقوط على الباب . ولم يعاقب أحد جون لضربه لى بدون سبب . وقلت فى نفسى « ظلم ! ظلم ! » وبدأت أخطط للهروب ، أى نوع من الهروب : مثل

الانفلات من البيت ، أو عدم الأكل والشرب يعد ذلك ،
وأترك نفسي لكي أموت .

وبدا ضوء النهار يفادر الغرفة الحمراء . كانت
الساعة بعد الرابعة والسماء ملبدة بالغيوم التي
يفرقها برق كثيب . وسمعت المطر لا يزال ينقر
باستمرار على نافذة الدرج ، والريح تعوى في الشجر
تحت البيت . وبعد فترة أصبحت باردة كالثلج وغاضت
شجاعتى . لقد قال الجميع بأننى شريرة ، وربما أكون
كذلك .

عادت افكاري الى خالى . اننى لا أستطيع أن
أتذكره ، لكننى أعرف انه كان أخا لأمى ، وأنه قد
أخذنى الى منزله كطفلة بلا أب ولا أم وأنه قبل أن يموت
حصل على وعد من زوجته مسز ريد بأنها ستعتنى بى
كأحد أبنائها .

وجالت برأسى فكرة غريبة . لم أشك مطلقا
أن مستر ريد كان سيحسن معاملتى اذا كان مازال على
قيده الحياة . والآن ، مع حلول الظلام ، بدأت أتذكر

قصص الأموات الذين هم قلقون في قبورهم بسبب
عدم الاهتمام بوصاياهم الأخيرة ، فيقومون بزيارة
الأحياء . . وربما يتنثل شبح مستر ريد أمامي . وهذه
الفكرة ، بدلا من أن تريحني ، ملأتني بالرعب .
وانعكس ، في هذه اللحظة ، شعاع من الضوء على
الحائط ، ربما من مصباح محمول عبر الحديقة في الخارج ،
لكن بالنسبة لأعصابي المهزوزة المستعدة للرعب بدا
كإشارة لشخص ما قدم من العالم الآخر . فدنق قلبي
بسرعة وأصبح رأسي ساخنا . وملأ أذني صوت يبدو
مثل رفرقة الأجنحة ، فركضت صارخة في ياس إلى
الباب ، وأخذت أحرك مقبضه . . فجاءت خطوات
مسرعة على طول الممر الخارجي ، وانفتح الباب بالمفتاح
ودخلت بيسي ثم أبوت ، وقالت بيسي :

— آنسه جين ، هل أنت مريضة ؟

واردفت أبوت قائلة :

— يا لها من ضوضاء مزعجة ! لقد شلت حركتي !

فكانت صرختي :

— أخرجوني ! دعوني أخرج من هنا !

فسالت بيسي ثانية :

— لماذا ؟ هل تضايقت ؟ هل رأيت شيئا ؟

— أوه ، رأيت نورا ، وظننت شبعا قد أتى .

وأمسكت بيد بيسي التي لم تسحبها مني .

وقالت أبوت بامتعاض :

— لقد صرخت عن عمد . ويالها من صرخة ! إذا

كانت أصيبت بالم فظيع لكان لها عذر ، لكنها أرادت

أن تأتي بنا جميعا الى هنا . أنا أعرف حيلها الماكرة .

وجه صوت آخر مستفسرا بعلة :

— ما كل هذا الضجيج ؟

انها مسز ويد التي استمرت قائلة :

— أنت يا أبوت وأنت يا بيسي ، اعتقد أنني

أمرت بأن تترك جين إير في الغرفة الحمراء حتى أت

اليها بنفسى !

فاجابت بيسى :

— لقد صرخت الأنسة جين بصوت عال

يا سيدتى .

فكانت اجابتها :

— أدخلوها . أتركى يد بيسى يا بنت ، انك لن

تنجحى فى الخروج بهذه الوسائل . اننى أكره الحيل ،
خصوصا من الأطفال . ومن واجبى أن أبين لك بانها

لن تفيد . ستبقين هنا ساعة أخرى وذلك على شرط
الطاعة والهدوء التامين ، وعندئذ سأخرجك .

— أوه ، يا خالتي ! الرحمة ! سامحينى !

لا أقدر أن أتحمل ذلك ! عاقبينى بطريقة أخرى !

لم تصدقنى ، ظننت أننى أظاهر ، وقالت :

— اسكتى ! ان هذه الضوضاء لشيء مقزز .

• كانت بيسى وأبوت قد ذهبتا ، فدفعتنى مسر

ريد ، بصبر نافد بسبب صراخى الوحشى ، وأعادتنى

بخشونة الى الغرفة ، وأغلقت على بدون كلام آخر .

وسمعتها وهى ترحل ، وبدأ رأسى بعدها يدور ويدور ،

ثم سقطت على الأرض فاقدة الوعي !

الفصل الثالث

المرض

وما أذكره بعد ذلك هو تيقظي مع شعور بانني كنت في حلم مزعج مع رؤية ضوء أحمر ساخن مفرغ أمامي تعترضه قضبان سميكة . وسمعت أصواتا ، أيضا ، تتحدث برنين أجوف ، وأحاسيسي مشوشة بالريبة والخوف . ثم بدأت أعي بأن هناك من يحملني الى أعلى بشكل لطيف ، ثم وضعت رأسي على الوسادة وشعرت بالراحة .

وبعد خمس دقائق ذابت سحب التشويش . وأدركت تماما بانني كنت في سريري ، وأن الضوء

الأحمر كان يأتي من مدفأة غرفة الأطفال . كان الوقت مساء ، والشمعة مشتعلة على المائدة . . . وتقف بيبي عند حافة السرير وفي يدها وعاء ، ويجلس على كرسي بجوار وسادتي رجل ينحني فوقى .

أحسست براحة لا يمكن التعبير عنها ، احساس بالحماية والأمان ، عندما علمت بوجود غريب في الغرفة ، شخص لا ينتسب الى جيتسهيد ، ولا هو قريب لمسز ريد ، فنظرت الى بيبي ثم تفحصت وجه الزائر . لقد عرفته ، انه مستر لويد صاحب مخزن الأدوية والذي كانت تطلبه مسز ريد أحيانا عندما يمرض أحد الخدم . أما بالنسبة لها ولأولادها فكانت تطلب طبيبا مختصا . وسألني :

— حسن ، من أنا ؟

قلت له اسمه وأعطيته يدي في نفس الوقت ،
فاخذها مبتسما وقال :

— ستتحسنين في القريب العاجل .

ثم خاطب بيسي وحذرها وأوصاها بعدم ازعاجي
أثناء الليل ، وبعد أن أعطى بعض التعليمات ، غادر
الغرفة قائلا بأنه سيعيد الزيارة في اليوم التالي .
وسالتني بيسي برقة :

- هل تشعرين بالنعاس يا آنسة ؟

لم أجرؤ على الاجابة عليها خشية أن تغير من
لهجتها اللطيفة ، ولكنني قلت :

- سأحاول .

- هل تحبين أن تشربي ، أو تأكلي شيئا ؟

- كلا ، شكرا يا بيسي .

- اذن ، سأذهب لأنام ، لكن يمكنك أن تنادي

على اذا احتجت أى شيء .

وذهبت بيسي الى غرفة الخدم التي كانت قريبة ،

وسمعتها تقول :

- سارة ، تعالى ونامي معي بجانب غرفة الاطفال .

اننى لا أجرؤ أن أكون بمفردى مع هذه الطفلة المسكينة

طول الليل • فقد تموت • ان اغماءها بهذه الطريقة
لشيء غريب ، ربما شاهدت شيئا • والآستين عاملتاها
بقسوة •

وجاءتها سارة ، وبعد نصف ساعة من تبادل
الهمس سويا نامت كلاهما ، أما أنا فلم أنم طوال
الليل ١٠٠

وفي اليوم التالي ، عند الساعة الثانية عشرة
أخذوني من فراشى وألبسوني ، وجلست ملفوفة في
بطانية بجوار المدفأة • وكنت أحس بضعف في جسدي
لكن مشكلتي الكثود كانت تفكيرى البائس الذي لا يمكن
أن يوصف • ومع ذلك ، فكرت بأننى يجب أن أكون
سعيدة ، فكل عائلة ريد خرجت بالعربة • وكانت
أبوت مشغولة بالخياطة في غرفة أخرى ، أما بيسى
التي تتحرك متنقلة في جناح الأطفال لتقوم بعملها
كانت تحدثنى من حين لآخر بعطف غير عادى •

ثم جاموني بكعكة ، أيضا ، من المطبخ ، على طبق
موشى بالرسوم الزاهية ، التي كنت أتوق لمذاقها منذ

فترة طويلة ، ولكنهم كانوا يمنعونى حتى من لمسها . .
كان هذا الطبق اللذيذ موضوعا على ركبتي وطلبوا منى
أن أكل منه . . معروف عقيم ! . . فليست عندى
شهية للأكل !

وسألتنى بيسى اذا كنت أحب أن تأتينى بكتاب ،
فرجوتها أن تحضر لى رحلات جليفر من المكتبة . لقد
قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة وأعجبت به . . ولكن
عندما وضعوه بين يدى الآن ، ونظرت الى صور العمالقة
والأقزام ، التى كنت أجد فيها متعة عظيمة ، الا أنها
ملأت عقلى بالخوف ، فأغلقت الكتاب .

انتهت بيسى الآن من ترتيب المكان وبدأت تنشغل
بالخياطة وأخذت فى أثنائها تغنى . كان لها صوت
جميل ، لكن الأغنية كانت حزينة ، عن طفلة يتيمة . .
وعندما انتهت من الأغنية قالت لى :

— آنسه جين ، لا تبكى !

وكانها كانت تقول للنار « لا تحترقى ! » .

وبعد قليل جاء مستر لويد ، وقال وهو يدخل
جناح الأطفال :

- ما هي الاخبار عندكم ؟ كيف حالها يا بيسي ؟

فأحابت بيسي باننى بخير . فأردف قائلا :

- اذن ، يجب أن تبتهج أكثر من ذلك . تعالى

هنا يا آنسة جين . لقد كنت تبكين .. هل يمكن أن
أن تخبريني لماذا ؟ هل تشعرين بأى ألم ؟

- كلا ، يا سيدى .

فقلت بيسي :

- أوه ، اعتقد أنها تبكى لأنها لا تستطيع الخروج

بالعربة مع العائلة .

فأجبت على فور :

- اننى لم أبك لمثل ذلك فى حياتى ! اننى اكره

الخروج بالعربة . اننى ابكى لأننى بائسة !

فقلت بيسي :

- كلام فارغ يا آنسة !

بدا مسـتر لويـد متـحـيرا بـعضـ الشـئ . وثـبت

عينيه على ، وأخذ يراقبني لفترة ، ثم قال :

- ما الذى جعلك مريضة بالأمس ؟
فقالت بيسى ، متدخلة مرة ثانية فى المحادثة :
- لقد وقعت ..

- وقعت ! لماذا ! الا تستطيع المشى فى سنها ؟
فشرحت له بكبرياء جريئة :

- لقد ضربت فوقعت على حافة الباب . لكن
هذا ليس السبب الحقيقى لمرضى ..
ورن فى هذه اللحظة جرس ، كان من أجل عشاء
الخدم . فقال مستر لويد :
- يمكنك أن تنزلى يا بيسى ، فهذا لك .

كانت بيسى تود البقاء ، لكنها لابد أن تذهب ،
لأن التقيد بمواعيد وجبات الطعام مفروض بشكل
صارم فى جيتسهيد . واستمر مستر لويد فى كلامه
بعد ذهاب بيسى :

- الوقوع لم يكن سبب مرضك . ماذا ، اذن ،
سبب مرضك .

- لقد حبسونى فى غرفة حيث ظهر لى شبح ..
فقد رأيت شبح مستر لويد يبتسم وتبدو عليه الحياة
فى نفس الوقت .

- شبح ! هل تخافين من الاشباح ؟

- من شبح مستر ريد . لقد مات فى هذه
الغرفة . ولا تذهب ببسى ولا أى شخص آخر اليها
فى الليل ، الا للضرورة القصوى . انه من القسوة أن
يحبسونى بمفردى بدون حتى شمعة .

- هل ذلك ما جعلك بائسة ؟

- اننى تعيسة لأسباب أخرى .

- ما هى هذه الأسباب ؟ هل يمكن أن تخبرينى
بعضاً منها ؟

كم كنت أود أن أجيب اجابة وافية على هذا
السؤال ! .. ولكن الاطفال يمكن أن يحسوا بمختلف
المشاعر ، ولكن لا يمكنهم أن يشرحوا أحاسيسهم .

- لشيء واحد ، ليس لى أب ولا أم ولا أخوة أو
أخوات .

- ولكن عندك زوجة خالك وأبناء خالك
العطوفين .

- لكن جونريد طرحني أرضا ، وزوجة خالي
حبستني في الغرفة الحمراء .

وسكنت مستر لويد ، وبدأ عليه التفكير ، ثم
استفسر قائلا :

- ألا تعتقد أن جيتسهيد مكان رائع الجمال ؟
ألسنت محظوظة أن تستطيع العيش هنا ؟

- انه ليس بمنزلى يا سيدى ، وتقول أبوت أن
حقوقى أقل من حقوق أى خادم .

- لكنك لا تودين مفادرة مثل هذا المكان الرائع ؟
- إذا كان لدى أى مكان آخر لأذهب إليه ،

لكننى سعيدة لمفادرتى .

- هل لديك أى أقارب آخرين ينتسبون لأبيك ؟

- لا أدرى . لقد سألت الخالة ريذ ذات مرة ،
فقالت لى من المحتمل أن يكون لى بعض الأقارب الفقراء
من عائلة إير ، ولكنها لا تعرف أى شىء عنهم .

- هل تحبين الذهاب الى المدرسة ؟

أخذت أفكر . كنت أعرف بالكاد ما هي المدرسة .
كان جون ريد يكره مدرسته ، وكان يتحدث عن أستاذه
بشكل مهين . لكن آراء جون ريد ليست آرائى .
وما حكته ييسى عن نظام المدرسة كما روته لها بنات
العائلة التى كانت تعيش عندها قبل قدومها الى
جيتسهيد كان مزعجا . . ولكن شرحها لبعض انجازات
هؤلاء البنات كان ساحرا . كانت تتفاخر برسوم
الطبيعة والزهور ، التى قمن بها ، وبالاغنيات التى
كن يشدون بها ، وبالموسيقى التى يستطعن عزفها ،
والكتب الفرنسية التى استطعن ترجمتها حتى تحركت
روح المنافسة عندى . بالاضافة الى أن المدرسة قد
تكون تغييرا شاملا ، بداية لحياة جديدة .

فقلت فى النهاية :

- فى الحقيقة أحب أن أذهب الى المدرسة .

فقال مستر لويد وهو يقف :

- حسن ، من يدري ماذا سيحدث ؟

وعندما عادت بيسى فى تلك اللحظة قال لها :
- هل عادت سيدتك ؟ أحب أن أتحدث معها
قبل ذهابى .

وفى ذلك المساء ، عندما جلست بيسى مع أبوت
يخطن فى جناح الأطفال مفترضتين اننى نائمة ، علمت
من حديثهما أن مستر لويد قد حث مسز ريد أن
ترسلنى الى المدرسة .

وسمعت لأول مرة فى نفس المناسبة من كلام
أبوت لبيسى بأن أبى كان رجل دين فقير ، وأن أمى
قد تزوجت منه ضد رغبات أصدقائها ، وأن جدى
قد غضب لعصيانها ولم يترك لها شيئاً عند وفاته ،
وأن أبى قد أصيب بالحمى بعد سنة من الزواج أثناء
زيارته للفقراء ، وأن أمى قد حملت العدوى منه ،
وأن كليهما قد توفى بعد ذلك .

الفصل الرابع

مستر بروكلهيرست

كان اليوم الخامس عشر من شهر يناير ، حوالي الساعة التاسعة صباحا . وكانت بيبي قد نزلت الى الانطار ، واليزا ترتدى قبعاتها ومعطفها لتذهب وتطعم دجاجاتها ، مهمة كانت مفرمة بها حيث كانت تبسح البيضى لمذبرة المنزل بربع وافر . . . وكانت جيورجيانا تضع زهورا صناعية فى شعرها . أما أنا فكنت ارنب السرير ، حيث كثيرا ما استخدمتنى بيبي كخادمة اضافية لجناح الأطفال .

وكان يمكن رؤية البوابات الرئيسية من نافذة

جناح الأطفال • وفى هذه اللحظة انفتحت تماما ودلفت
عربة الى الداخل • ووقفت أمام المنزل ، ورن جرس
الباب بصوت مرتفع ، ثم سمح للضيف بالدخول •
وجاءت بيسى راكضة للطابق العلوى •

— آنسة جين ، ماذا تفعلين ؟ هل غسلت وجهك
ويديك هذا الصباح ؟

ورببت لى شعرى بالفرشاة بسرعة وقالت لى أن
أنزل فى الحال ، لأننى مطلوبة فى غرفة الافطار •

فنزلت السلم ببطء •• فلقد مضت مدة طويلة
لم أمتثل أمام مسز ريد ، ووقفت خائفة مرتعشة أمام
باب الغرفة • ما الذى فعله فى الخوف البائس الجبان
من جراء العقاب الجائر ؟ واخذت أتساءل :

— من يا ترى يريدنى ؟ من سأرى مع الحالة
ريد فى الغرفة ؟ •• هل سأرى رجلا أم امرأة ؟

وأدرت المقبض وفتحت الباب ومشيت ورفعت
بصرى الى ••• عامود أسود ! هذا كان على الأقل
الشكل المائل فوق السجادة كما ظهر لى عند أول
نظرة •

وكانت مسز ريد تحتل مقعدها المعتاد بجو
النار . فاشارت لى بالاقتراب ، وهى تقول للغريب :
- هذه هى البنت الصغيرة التى قدمت لك
طلبها .

وأدار رأسه ببطء ، وأخذ يتفرسنى وقال بوقار
وبصوت عميق :

- انها صغيرة . ما هو سنها ؟
- عشر سنوات .

فقال باندھاش :

- كثير عليها .

ثم اردف يخطبني :

- اسمك يا صغيرة ؟

- جين اير يا سيدى .

- حسن ، جين اير ، وهل أنت طفلة طيبة ؟

فلذت بالصمت . وأجابت مسز ريد عنى بهزة
من رأسها .

واستمر قائلا :

- لا يوجد منظر أكثر حزنا من الطفل السوء .
الله سيعاقب الأشرار . هل تصلين في الصباح
والساء ؟

- أجل يا سيدى .

وعندئذ تدخلت مسز ريد فى المحادثة .

- مستر بروكلهيرست ، اعتقد باننى اخبرتك
فى خطاى الذى كتبته لك منذ ثلاثة أسابيع ، بان
هذه البنت الصغيرة ليست لديها الشخصية التى يجب
أن تكون عليها . فاذا سمحت لها بالالتحاق بمدرسة
لوود ، سأكون سعيدة ، على أن تراقبها المدرسات ،
جيذا ، وأهم شيء أن تراقبوا اسوأ عيب فيها ، ميلها
للخداع .

كان لدى سبب وجيه لخوفى من مسز ريد ، لان
من طبيعتها أن تجرح احاسيسى بقسوة . فهذا الاتهام
الذى أدلت به أمام غريب ، طعننى فى قلبى ولاحظت
أنها تحاول ما فى وسعها لتتلف حياتى الجديدة التى
أمل منها الكثير .

وقال مستر بركلهريست :

– فى الحقيقة الخداع عيب محزن فى الطفل .
سيراقيبونها يا مسز ريد ، سوف أخبر مس تمبل
والمدرسات .

واستمرت زوجة خالى فى قولها :

– أود أن تنشأ على أخلاق تتناسب مع مستقبلها ،
لتكون مفيدة ومتواضعة . أما بالنسبة للعطلات
والاجازات ، فسوف تقضيها دائما ، بعد اذنك ، فى
لوود .

– ان قراراتك حكيمة ياسيدتى ! .. أيتها البنت
الصغيرة ، اليك بهذا الكتاب ، اقرأى الجزء الذى
يتضمن الموت المفاجئ لمارتا ، الطفلة الشريرة التى
كانت تكذب .

وبعد انصرافه ، بقيت أنا ومسز ريد بمفردنا
سويا . ومرت دقائق قليلة فى سكون ، اذ كانت
تخيط وأنا أراقبها . فتحركت عاطفة الغضب فى
قلبى .

ورفعت مسز ريد بصرها ، وركزت عينيها على
عيني وتوقفت أصابعها عن العمل وكان امرها لي :

- أخرجني من الغرفة . عودي الى جناح الأطفال !
فنهضت وذهبت الى الباب ، ثم عدت ثانية عبر
الغرفة بالقرب منها . وجمعت كل طاقاتي وهاجمتها
بهذه الجملة :

- اننى لست مخادعة . لو كنت كذلك لقلت
بأننى أحببتك ، ولكنى أعلن بأننى لا أحبك . بل
أكرهك أكثر من أى شخص فى العالم ، ماعدا
جون ريد . أما هذا الكتاب عن الكاذبة فلتعطيه
لابنتك جيورجيانا لأنها هى التى تكذب لا أنا !!

وظلت يد مسز ريد بلا حراك على شغلها وظلت
عيناها الباردتان مسطتين على ، ثم سألتنى بصوت
شخص يخاطب آخر فى نفس عمره لا الذى يخاطب
طفلة :

- هل من مزيد لتقوليه ؟

فواصلت قولى وأنا أنتفض من راسي لخمص قلبي
بشكل لا ارادى :

- أنا سعيدة أنك لست قريبة لى • لن أناديك
بخالتى ثانية ما حييت • وإذا سألتنى أحد هل أحبك
وكيف كنت تعامليننى ، سوف أقول بأنك ليس عندك
رحمة وأنك عاملتتنى بقسوة بائسة •

- كيف تجرؤين على قول ذلك ، يا جين اير ؟

- كيف أجرؤ ، مسز ريد ؟ لأنها الحقيقة •
تعتقدين بأننى بلا شعور ، ويمكن أن أعيش بدون ذرة
حب ورحمة • سوف أذكر كيف حبستينى فى الغرفة
الحمراء ، رغم فزعى وتوسلاتى بأن ترحيننى • • وكان
هذا العقاب الذى جعلتتنى أعانى منه لأن ولدك الشرير
قد ضربنى وطرحنى أرضا بدون سبب • والناس تظنك
سيدة طيبة ، لكنك سيئة وقاسية القلب !

وقبل أن أنتهى من هذه الاجابة بدأت روحى
تشعر بأغرب معنى للحرية • ونظرت مسز ريد فى
خوف ، ووقع شغلها من على ركبته ، وكادت أن تدير
وجهها وكأنها ستبكى •

- جين ، أنك مخطئة • ما حكايتك ؟ لماذا

ترتعدين بهذا العنف ؟ • • هل تريدن بعض الماء ؟

- كلا ، مسز ريد .

- هل هناك أى شيء آخر ترغبينه يا جين ؟ ..
صدقيني ، انى أرغب فى أن أكون صديقتك .

- لست انت . انك أخبرت مستر بروكلهيرست
باننى ذات شخصية سيئة ، وسوف أخبر كل شخص
فى لوود عنك ، وما فعلتيه .

- جين ، انك لاتفهمين هذه الاشياء . يجب على
الكبار أن يصححوا أخطاء الصغار .
- الخداع ليس من أخطائى .

- لكن يجب أن تعترفى بأنك انفعالية . عودى
الآن الى جناح الأطفال ، يا عزيزتى ، ونامى قليلا .

- اننى لست عزيزتك .. أرسليني للمدرسة
فورا يا مسز ريد ، لأننى أكره أن أعيش هنا .
فتمتت مسز ريد لنفسها قائلة :

- سوف أرسلها للمدرسة فورا بالفعل .
وللمت شغلها وتركت الغرفة فجأة ..

الفصل الخامس

رحلة بالعربية

عندما كانت الساعة تدق الخامسة من صباح اليوم التاسع عشر من يناير ، جاءت بيسى بشمعة الى ركنى الصغير ، فوجدتنى مرتدية ملابسى ومستعدة للرحيل . . كنت سأغادر جيتسهيد فى ذلك اليوم بعربة تمر على المنزل فى تمام الساعة السادسة . ولقد أشعلت بيسى مدفأة جناح الأطفال ، وبدأت الآن فى احضار افطارى . بعض الأطفال يمكن أن يأكلوا عندما يفكرون فى الرحيل ، أما أنا فلا . . وعندما حثتنى بيسى ، بلا جدوى ، أن أتناول قليلا من الحليب المغلى مع الحبز الذى أعدته لى لم أستطع ، فلفت لى قطعاً

من الكمك فى ورقة ووضعته فى حقيبتى ، ثم ساعدتنى
فى ارتداء معطى وقبعتى ، ثم نزلنا ٠٠ وعندما مرونا
على غرفة نوم مسز ريد قالت بيسى :

— هل ستدخلين لتودعى مسز ريد ؟

— كلا يا بيسى ، لقد جاءت الى سرى فى الليلة
الماضية وقالت لا داعى ، أن تزعجيني فى الصباح ، أو
تزعجى الأنستين ٠٠ ثم أخبرتنى أن أذكر أنها كانت لى
دائما أفضل صديق .

— وماذا قلت لها يا آنسة ؟

— لا شئ . غطيت وجهى بالملاءة والتفت ناحية
الحائط .

— كان هذا خطأ يا آنسة جين .

صرخت عند مروونا عبر الصالة خارجين من
الباب الأمامى :

— وداعا لبيتسهد !

وكان الظلام دامسا وكانت بيسى تحمل مصباحا
وعند اسراعى نحو البوابة أحسست ببرد ورطوبة

الصباح الشتوى • وكان صندوقى الذى أنزلوه الى هناك ليلة أمس جاهزا •• وفى الساعة السادسة الا دقائق قليلة سمعنا صوت عجلات العربى تعلن عن قدومها •• هاهى بجيادها الاربعة محملة بالمسافرين • وحث سائق العربى والحارس بصوت عال أن نسرع ورفعنا صندوقى وأخذانى من رقبة بيسى التى تعلقت بها بالقبلات •

وقالت للحارس وهو يرفعنى الى داخل العربى :

— أوصيك أن تهتم بها •

واغلق الباب • وبهذه الطريقة انفصلت عن بيسى وجيتسهد • بهذه الطريقة انتقلت الى المجهول ، وكما يبدو لى الى أماكن بعيدة وغامضة •

أتذكر القليل عن الرحلة • كان اليوم يبدو بلا نهاية وكأننا نقطع مئات من الأميال فى الطريق • ومررنا عبر مدن وقرى عديدة • وفى احدى المدن الكبيرة توقفت العربى ، وسحبوا الجياد ، ونزل الركاب لتناول الغداء ، وحملونى الى فندق صغير حيث قدم لى

الحارس طعاما لكننى لم أستطع الاكل .. وتركنى
فى حجرة كبيرة حيث أخذت أذرعها ذهابا وإيابا وأنا
خائفة من أن يخطفنى أحد ، لأننى كنت قد سمعت عن
سرقة الاطفال فى كثير من قصص بيسى .

وواصلنا طريقنا .. وتحول الجو الرطب الضبابى
الى شفق . لم نمر على مدن بعد ذلك ، فالمناظر الطبيعیه
تغيرت وظهرت التلال الرمادية الضخمة عن بعد ونزلنا
الى واد محفوف بالغابات المعتمة .

ونمت أخيرا ، ولكن وقوف العربیة أيقظنى .
وانفتح الباب ووقفت سيدة بجانبه .. ثم رأيت وجهها
ورداءها على ضوء المصابيح ، وسألت :

— هل يوجد هنا بنت صغيرة اسمها جين

ایر ؟

فاجبت :

— اجل .

وانزلونى ، وكذلك صندوقى واندفعت العربیة
فى طريقها ..

كنت متييسة من الجلوس طويلا ، ومشوشة من
ضوضاء العربية وحركتها . . وبعد أن استعدت
أحاسيسي نظرت حولى والمطر والريح والعتمة تملأ
الهواء . ومع ذلك رأيت أمامي بشكل باهت حائطا
وبابا مفتوحا فيه . ومررت مع دليلي الجديد عبر هذا
الباب فوجدت منزلا به نوافذ كثيرة والاضواء مشتعلة
فى بعض منها ، وصعدنا طريقا عريضا أودى بنا الى
باب ، ثم قادتنى عبر ممر الى غرفة بها مدفأة وتركتنى
بمفردى .

الفصل السادس

ملجأ لوود لليتيمات

وبعد أن ادقات أصابعى المتجمدة فوق المدفأة ، نظرت حولى فى الغرفة .. كانت غرفة جلوس ، ليست فى فخامة غرفة الاستقبال فى جيتسهيد ، لكنها مريحة بما فيه الكفاية .

ودخلت سيدة طويلة تتبعها أخرى ، وقالت

الأولى :

— انطفلة صغيرة على أن يرسلوها بمفردها .

ونظرت الى برهة ثم اضافت قائلة :

- من الأفضل أن تضعوها في فراشها حالا .
- انها تبدو متعبة . هل انت متعبة ؟
- ووضعت يدها على كتفى اثناء حديثها لى .
- قليلا ، يا سيدتى . . !

• وجائعة ايضا بدون شك . . مس ميللر ، قدمي لها العشاء قبل أن تذهب للنوم . هل هذه هى المرة الأولى التى تتركين فيها والديك لتأتى للمدرسة يا ابنتى الصغيرة ؟

فأوضحت لها انى يتيمة بلا والدين . وسألتنى كم مضى على وفاتهما ، ثم عن سننى ، واسمى ، واذا كنت أستطيع القراءة والكتابة وأداء القليل من الحياطة . ثم لمست وجهى بأصابعها برقة قائلة بأنها تأمل بأن أكون بنتا ممتازة ، وأذنت لى بالانصراف مع مس ميللر .

كانت هذه السيدة التى تركناها . كما علمت فيما بعد ، مس تمبل ، رئيسة المدرسات والمسئولة

عن الملجأ • أما مس ميللر فكانت أصغر وعادية أكثر
وكان يبدو عليها التعب ، وقادتني عبر ممرات طويلة
وحجرات الى أن سمعت هممة أصوات كثيرة بعدها
دخلت حجرة واسعة طويلة بها مناظيد كبيرة ، اثنتان
عند كل ركن ، وعلى كل واحدة يشتمل زوج من
الشموع ، ويجلس من حولها مجموعة من البنات من
كل الاعمار ، من تسعة أو عشرة الى عشرين كن جميعهن
يرتدين اللون البنى • كانت ساعة المذاكرة وكن
منهكات في عمل واجباتهن •

وأشارت مس ميللر لى بالجلوس • ثم سلوت الى
راس الحجرة وقالت صائحة :

— اجمعن الكراسيات وضعوهن بعيدا •

نهضت أربع بنات طوال من مناظيد مختلفة
ومررن يجمعن الكراسيات • ثم أعطت مس ميللر أمرا
آخر :

— احضرن صواني العشاء •

ذهبت البنات الطوال وعدن بعد قليل وكل

واحدة تحمل صينية بها قطع من الخبز مرتبة عليها ،
وابريق من الماء مع كوب فى الوسط . . تم تفريق
الخبز والماء لمن أرادت ، وعندما جاء دورى شربت ،
حيث كنت عطشى ، ولكنى لم أكل لاحتاسى بالتعب .
وعند الانتهاء من العظام وتلاوة الصلوات تحركت
البنات بانتظام . . اثنتين اثنتين ، لصعود السلم . .
وكنت أقاوم النوم ، لذلك لم ألاحظ غرفة النوم جيدا
غير أنها مستطيلة مثل غرفة الدراسة . . وساعدتنى
مس ميلر فى خلع ملابسى ، وبسرعة امتلات سرائر
كل صف من الصفوف الطويلة وفى عشر دقائق انطفأ
الضوء الوحيد .

مرت الليلة بسرعة . كنت متعبة حتى لأحلم .
وعندما فتحت عيني كان الجرس يرن بصوت عال .
وكانت البنات مستيقظات ويرتدين ملابسهن . . ولم
يظهر بعد ضوء النهار والمصباح لا يزال يشتعل فى
الحجرة . ونهضت أنا أيضا ، وارتديت بدون رغبة .
كان الجو باردا بشكل قارس . واغتسلت

عندما وجدت حوضا خاليا لا تستعمله احداهن ، حيث
كان هناك حوض واحد لكل ست بنات ثم رن الجرس
ثانية .. فوقف الجميع في صفوف ، اثنتين اثنتين ،
وبهذا النظام نزلن السلم ، ودخلن حجرة الدراسة
الباردة سيئة الاضاءة .

وهنا رتلن الصلوات ، ثم فادت بعد ذلك مس
ميلر قائلة :

- شكلن الفصول .

تبع ذلك كمية كبيرة من الضوضاء والحركة لعدة
دقائق ، كررت مس ميلر اثناءها قولها ،
« السكون ! » و « النظام ! » وعندما انتهى كل شيء
رأيت البنات منتظمات في أنصاف أربع دوائر ، وأمام
كل منها منضدة وكرسی . وجميع البنات يحملن كتباً
في أيديهن ، وهناك كتاب كبير موضوع على كل
منضدة .. وتبع ذلك فترة صمت لبضعة دقائق .
وسارت مس ميلر من فصل لآخر تسكت البنات
الهامسات ..

رن جرس بعيد . فدخلت ثلاث سيدات الحجرة

في الحال . سارت كل واحدة منهم الى منضدة وأخذت
مس ميللر المنضدة الرابعة ، التي من حولها تجمعت
البنات الصغيرات . . ونادوني لهذا الفصل الأصغر !

بدأ العمل بعد ذلك بقراءة مطولة من الانجيل .
وعند الانتهاء من ذلك كان ضوء النهار قد حل . ورن
الجرس مرة أخرى ، فسارت الفصول الى حجرة أخرى
للافطار . كم كنت سعيدة لفكرة أن أحصل على شيء
لأكله ! اذ كنت على وشك الإعياء من قلة الأكل ، حيث
لم أكل الا القليل في اليوم السابق .

وضعت أوان وأوعية ذات أبخرة تتصاعد منها
على موائد حجرة الطعام ، ولكن لخبيرة ظني كانت
الرائحة غير مشجعة . ولاحظت علامات استياء عام .
ومن بداية الموكب بدأت البنات الطوال في الفصل
الأول يتهاמשن « مقرف ! العصيدة محروقة ثانية ! » .
رتلت الصلاة ، ثم احضرت الخادم الشاى
للمدرسات وبدأ الطعام .

ولانى كنت جائعة بشكل عنيف ، حتى أصبحت

على وشك الاغماء ، فقد أكلت بشغف ملعقة من نصيبي دون التفكير في المذاق ، ولكنى عندما أَرْضِيت قرصة الجوع الأولى ، لم أستطع أكل المزيد . وتحركت الملاعق ببطء من حولي . ورأيت كل بنت تذوق العصيدة ، وتحاول أن تبتلعها ..

وعندما رتلّت الصلاة مرة أخرى ، عدنا الى حجرة الدراسة . كنت مع آخر من خرجن ، وعند مروري رأيت إحدى المدرسات تتناول طبقا وتذوق العصيدة . ونظرت الى الأخريات اللاتي عبرت وجوههن عن الاستياء ، فعلمت أنهن جميعا لا زلن جائعات .

ومرت ربع ساعة قبل بدء الدروس مرة أخرى ، تكلمت أثناءها كل واحدة بصوت عال وبحرية . وكان كل الحديث عن الافطار . سمعت البعض يذكر اسم مستر بروكلهيرست . وهزت مس ميللر رأسها بعدم موافقتها على ما يقمن به ، لكنها لم تحاول إيقاف التذمر العام . لاشك أنها متعاطفة معنا .

ومن الساعة التاسعة خيم الهدوء التام ، ودخلت

رئيسة المدرسات ونادت على الفصل الاول ليلتف حولها ، وأعطت درسا عن بلدان العالم . وانشغلت الفصول الأخرى مع مدرسات أخريات للتاريخ والقواعد ثم تبعتها دروس فى الكتابة والحساب وأعطت مس تمبل دروس الموسيقى لبعض البنات الكبار ..

واخيرا دقت الساعة معلنة الثانية عشرة ظهرا

ونفضت مس تمبل وقالت :

– أريد أن أوجه كلمة للطالبات . لقد جاء هذا الصباح افطار لم تستطعن أكله . فلا بد أنكن جائعات لذلك طلبت وجبة مكونة من الخبز والجبن وستقدم للجميع .

ونظرت المدرسات اليها باندهاش ، فأضافت

قائلة :

– هذا القرار اتخذته على مسئوليتى .

وتركت بعدها الحجرة فى الحال .

وجاء الخبز والجبن فورا ووزع على الجميع .

وسرت المدرسة كلها لهذه اللفتة .. ثم جاء الامر

بالتوجه الى « الحديقة ! » فتبعت الطالبات حتى وجدت
نفسى فى الخارج ..

كانت الحديقة عبارة عن تحويطة واسعة لها
جدران عالية ، وفى وسطها مساحة مقسمة الى عدد
من المربعات الصغيرة تعطى لكل طالبة لزراعتها كحدائق
ولا بد أنها ستبدو فاتنة عندما تمتلئ بالزهور .. أما
الآن فكل شئ شتوى المنظر .. وأخذت البنسات
القويات يركضن ويلعبن لعبات رياضية ، ولكن
كثيرات من الطالبات النحيفات الضعيفات تجمعن سويا
تحت مكان مغطى فى نهاية الحديقة للاحتماء والدفء
وأخذت أسمع تلك السعلات فى الهواء الرطب
الضبابى .

لم أتحدث بعد مع أحد ، كما لم يلاحظنى منهن
أحد . فوقفت وحيدة ، لكننى كنت معتادة على أن أكون
بعيدة عن الآخرين . واستندت على أحد الاعمدة
لأتسلى بالمراقبة ، محاولة أن أنسى البرد . ورفعت
بصرى الى المنزل فرأيت الكلمات التالية محفورة فى
الحجر فوق الباب :

ملجأ لوود لليتيمات • قامت بينه هذه المدرسة
نعومي بروكلهيرست من بروكلهيرست هول •

قرأت هذه الكلمات ، وعند الانتهاء منها سمعت
سعلة من خلفي ، فالتفت فرأيت بنتا جالسة على مقعد
تقرأ • وعندما كانت تقلب الصفحة تصادف ورفعت
بصرها فقلت لها على الفور :

— هل كتابك مسل ؟

فاجابت بعد ما تفحصتني للحظة :

— اننى أحبه •

— ما هو موضوعه ؟

فاجابت البنت وهى تقدم لى الكتاب :

— يمكنك النظر فيه •

كنت أحب القراءة أنا أيضا ، لكنى لاحظت أنه
صعب على • فأعدته اليها وتناولته هى فى هدوء •
وكانت على وشك أن تعود لقراءة قصتها ، ولكنى كنت
جريئة مرة أخرى لازعجها •

- هل يمكن أن تخبرينى معنى الكتابة المحفورة
على الحجر فوق الباب ؟ .. ما معنى ملجأ لوود ؟

- هذا المنزل الذى جئت لتعيشين فيه . أعتقد
إنك يتيمة ، أليس كذلك ؟

- أجل ، لقد توفى والداى الاثنان قبل أن
أعمر ..

- حسن ، جميع البنات فى هذه المدرسة قد
فقدن أحد والديهم أو كليهما . هذا المكان هو لتربية
الأيتام .

- ألا ندفع نقودا ؟ هل يرعوننا بدون مقابل ؟

- ندفع أو أصدقاؤنا يدفعون لنا خمسة عشر
حنيتها فى السنة لكل طالبة . وهذا لا يكفى ، فالباقى
يدفعه رجال وسيدات كرماء من المنطقة ومن لندن .

- ومن هى نعو مى بروكلهيرست ؟

- أنها السيدة التى بنت الجزء الأكبر من هذا
المنزل . وابنتها يتحكم ويدير كل شئ هنا !

- اذن هذا المنزل لا يخص السيدة الطويلة التي سمحت بأن تحصل على بعض الخبز والجبن ؟

- مس تمبل ؟ أوه ، كلا ! أتمنى ذلك . انها المستولة أمام مستر بروكلهيرست عن كل ما تقوم به هنا . وهو يشتري كل طعامنا وملابسنا .

- هل هو رجل طيب ؟

- انه رجل دين .

- هل تحبين المدرسات .

- أجل .

فسالت عن أسمائهن وشخصياتهن ، ومنذ متى وهي في المدرسة ، وآخر شيء ، اذا كانت مسيحية هناك .

- لقد سألت اسئلة كثيرة . والآن أريد أن أقرأ .

ولكن الجرس رن في هذه اللحظة ، ودخل الجميع الى المبنى ، حيث يقدمون الغداء في وعاءين ضخمين من الصليح ، تصدر منهما رائحة نفاذة لدهن

كريبه ، فكانت الرائحة ليست أفضل من رائحة الافطار
وكان الطعام عبارة عن خليط من البطاطس الرديئة
مع قطع غريبة من اللحم الاسمر المدهن مطبوخة سويا .
أكلت على قدر ما استطعت وأخذت أتساءل هل الأكل
بهذا الشكل كل يوم .

وكان علينا بعد الغداء ، أن نتلقى دروسا حتى
الساعة الخامسة . . والحادث الوحيد الذي رأيته
هو طرد البنات التي تحدثت معها من فصل التاريخ
بشكل مهين لتقف في وسط حجرة الدراسة الكبيرة .
بدأ العقاب لي جارحا لكرامة الانسان بشكل عميق ،
وخصوصا لبنات كبيرة مثلها - كانت تبدو في الثالثة
عشرة من عمرها أو أكثر . ولدهشتي لم تبك ، ولم
يحمر وجهها .

وسالت نفسي :

- كيف يمكنها أن تحتمل ذلك بهدوء ؟ كان يبدو
عليها أنها تفكر في شيء آخر غير عقابها . كانت تنظر

الى ما يمكنها تذكره ، لا الى الواقع بالفعل . ترى اى نوع من البنات هي ؟ طيبة ام سيئة ؟

وبعد الساعة الخامسة مباشرة تناولنا وجبة اخرى . وكانت عبارة عن فنجان من القهوة ونصف قطعة خبز أسمر . فأكلتها بشغف ولكنى ظلمت جائعة تبع ذلك نصف ساعة لعب ، ثم دراسة ، ثم كوب من الماء وقطعة من الخبز ، فالصلاة ثم النوم . وهكذا كان يومى الأول فى لوود ..

الفصل السابع

هيلين بيرنز

بدأ اليوم التالى كسابقه بالاستيقاظ وارثدا .
الملايس قبل شروق الشمس ، ولكن هذا الصباح كان
باردا جدا لدرجة أننا لم نستطع الاغتسال ، لان الماء
كان متجمدا فى الأباريق .

وقبل أن تنتهى الساعة الطويلة لقراءة الانجيل ،
خيل الى أنى سأموت من البرد . وجاء موعد الافطار
أخيرا ، ولم تكن العصيدة محروقة هذا الصباح .
كانت قابلة للأكل ولكن الكميات كانت قليلة . . . وكم
كان نصيبى ضئيلا ! حتى تمنيت أن يتضاعف !

وخلال النهار ، بدأت كتلميذة فى الفصل الرابع ٠٠ وفى البداية ، ولأنى لم أكن معتادة على التعلم عن طريق الحفظ ، بدت الدروس طويلة وصعبة وأربكنى التنقل المتكرر من موضوع لآخر ، فكنت مسرورة عندما وضعت مس سميث بعض أعمال الخياطة فى يدي حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وارسلتنى الى ركن هادى من حجرة الدراسة .

وفى تلك الساعة كانت معظم البنات الأخريات يقمن بأعمال الخياطة أيضا ، ولكن فصلا واحدا كان لا يزال يقف حول مدرسة تقرأ ، ولما كان كل شىء هادئا ، أمكن سماع الدرس ، مع اجابات التلميذات وتوجيهات المدرسة . كان درسا فى التاريخ ، كما لاحظت أن رفيقتى فى اليوم السابق كانت على قمة الفصل الى أن أخطأت بعض الأخطاء فأرسلتها المدرسة الى نهاية الفصل . وحتى عندئذ عنفتها باستمرار بكلمات مثل تلك :

- بيرنز (هكذا كان اسمها : فالبنات كن

يعرفن بالقابهن) « انك تقفين على جانب حذاءك ،
اعتدلى فى وقفتك فورا » .. بيرنز ، ارفعى رأسك » .

وبعد قراءة الفصل مرتين اغلقت الكتب وتم
اختبار البنات . وبدا انه كان اختبارا صعبا على
معظم البنات ، لكن بيرنز كانت مستعدة بالاجابات
على كل نقطة . وكانت تتوقع أن المدرسة ، مس
سكاتشيرد ستمتدحها .. ولكن بدلا من ذلك صرخت
فجأة :

— أنت يا بنت يا قدرة يا كثيبة ! .. انك لم
تنظفى أطافرك هذا الصباح !

ولم تجب بيرنز على الاطلاق . وكنت مندهشة
من سكوتها . وفكرت :

— لماذا لم « تخبر المدرسة » بأن الماء كان متجمدا
هذا الصباح ؟!

ولفتت انتباهي مس سميث التى أرادت أن ترى
شغلى . وعندما عدت الى مقعدى ، كانت بيرنز على

وشك مفادرة الحجرة تنفيذا لأمر من مس سكاتشيرد ،
وعادت بعد نصف دقيقة حاملة فى يدها حزمة من
العصى مربوطة سويا من أحد طرفيها . وقدمتها
للمدرسة باحترام . فقامت مس سكاتشيرد بضربها
فى الحال عدة ضربات بحدة . ولم تظهر دمة واحدة
فى عين بيرنز ، وعندها توقفت عن خياطتى لأن أصابعى
توقفت . بسبب الغضب من هذا المنظر . . أما وجهها
المفكر فلم تتغير أية قسمة من قسماته ولا أى تعبير من
تعبيراته .

وإثناء ساعة اللعب ذلك المساء ، توجهت الى
المدفأة . فوجدت بيرنز راكعة بجانبها ، وكل انتباهها
كان مركزا فى كتاب . فسألتها :

- هل هذا نفس كتاب الأمس ؟
- أجل ، لقد انتهيت منه لتوى .

ثم أغلقته فسألتها :

- ما اسمك الأول الذى يسبق بيرنز ؟
- هيلين !

- هل جئت من بعيد يا هيلين ؟
- لقد جئت من مكان فى الشمال على حدود اسكتلندا .
- لابد أنك ترغبين فى مغادرة لوود .
- كلا ، لماذا ؟ لقد أرسلونى هنا لأتعلم ، فلا فائدة من ذهابى قبل أن يتم ذلك .
- لكن هذه المدرسة مس سكاتشيرد قاسية جدا عليك .
- قاسية ؟ ابدا على الاطلاق ! انها شديدة .
- انها تكره الأخطاء .
- اذا كنت فى مكانك وضربتني ، لكنت أخذت العصا من يدها وكسرتها تحت أنفها .
- اذا فعلت ، فسيطردك مستر بروكلهيرست من المدرسة ، وسيسبب ذلك حزن اقربائك .
- لكن يبدو لى من العار أن أضرب أمام الجميع .
- اننى لا أحتمل ذلك .

- انه من الضعف والسخافة القول بانك لا
تستطيعين احتمال ما هو ضرورى أن تحتمليه .
واستمعت اليها باندهاش . ولم أستطع فهم
وجهة نظرها .

- تقولين بأن لك أخطاء يا هيلين . ما هي ؟
بالنسبة لى فانك ممتازة .

- اننى مثل ما تقول مس سكاتشيرد مهملة وغير
منظمة .. اننى من النادر أن أحتفظ بالاشياء مرتبة .
اننى أنسى القواعد التى يلزمونا بها .. فانا اقرأ
عندما يجب أن اذاكر دروسى !

- هل مس تمبل شديدة معك مثل مس
سكاتشيرد ؟

فارتسمت ابتسامة رقيقة على وجهها وقالت :

- مس تمبل كلها طيبة . فهى ترى أخطائى
وتخبرنى عنها بلطف . وعندما أعمل أى شىء بشكل
جيد تمدحنى بكرم .

- وعندما تدرس لك مس تبيل هل تسرحين
بافكارك ؟

- كلا ، من النادر ، لأن ما تقوله عادة يكون
مشوقا بالنسبة لى .

- المفروض ان تكونى طيبة مع من هم طيبين
معك . هذا ما أرغب أن أكونه . ولكن عندما نضرب
بدون سبب ، فيجب أن نعيد الضربة بشدة .

- ليس العنف أفضل السبل لقهر الكراهية .
فالطيّبون يحاولون أن يحبوا أعداءهم ويباركوا من
يلعنونهم .

- اذن يجب على أن أحب مسز ريد وأبارك ابنها
جون ، وهو الشئ المستحيل .

وسألتنى هيلين بدورها أن أشرح لها ، فسردت
قصة معاناتى السابقة . واستمعت لى بصبر حتى
النهاية ، ولكنها لم تقل شيئا .

وسالتها :

- حسن ، أليست مسز ريد امرأة قاسية القلب ؟

- لقد كانت ظالمة لك ، بلا شك ، لكن ألن تكوني أسعد حالا اذا حاولت أن تنسى قسوتها ؟ تبدو الحياة بالنسبة لى قصيرة جدا لنقضها في تذكر ظلم الماضي !

ورأيت من نظرتها أنها لا ترغب فى الاسترسال فى الحديث ، انما تفضل أن أتركها لأفكارها . ومع ذلك لم يدم هذا طويلا ، اذ جاءت بنت طويلة فظة وصرخت قائلة :

- هيلين بيرنز اذا لم تذهبي وترتبى درجك فى الحال سأخبر مس سكاتشيرد لتأتى وتراه !
فقامت هيلين وأطاعت بدون تأخير .

الفصل الثامن

زيارة مستر بروكلهيرست

وفي أحد الأيام عندما مضى على حوالى ثلاثة أسابيع فى لوود وكنت منكبّة على حل بعض مسائل الحساب ، نهضت كل المدرسة فجأة بما فيها المدرسات .. ورأيت بجانب مس تمبل نفس العامود الاسود الذى نظر الى بصرامة شديدة فى غرفة الافطار بجيتسهيد .

وطوال هذا الوقت ، وكنت أخشى قدوم مستر بروكلهيرست وتنفيذ وعده لمسز ريد .. كان يتحدث الآن بصوت منخفض مع رئيسة المدرسات .

- أود الاعتناء بالجوارب الصوفية بشكل أفضل
عندما كنت هنا آخر مرة ، تفحصت الملابس المنشورة
للتجفيف . كانت بالجوارب ثقوب كبيرة وكثيرة .

فقال مس تيمبل :

- سنهتم بتعليماتك يا سيدى !

فاضاف قائلا :

- واجد أن بعض الفتيات لديهن ياقتان نظيفتان
فى الأسبوع . هذا كثير . النظام يحدد لهن ياقة
واحدة فقط .

- اعتقد أنى أستطيع توضيح كيف حدث ذلك،
يا سيدى . لقد دعيت طالبتان للذهاب الى تناول
الشاي مع بعض الأصدقاء يوم الخميس الماضى ، ولقد
أعطيت لهما الاذن بارتداء ياقة نظيفة تليق
بالمناسبة .

فاوما مستر بروكلهريست قائلا :

- حسن ، مرة ، قد يسمح بها ، لكن من فضلك

لا تدعى ذلك يحدث دائما .. وهناك شيء آخر
أدهشنى . اكتشفت ، عند مراجعة الحسابات مع
مديرة المنزل ، أن وجبة خبز وجبن قد قدمت للبنات
خلال الشهر الماضى . كيف كان ذلك ؟ فنظم المدرسة
لا تنص على مثل هذه الوجبة . من عدل فيها ؟ ومن
اعطى الأوامر ؟

فاجابت مى تمبل :

— يجب أن أكون المسئولة عن ذلك الحدث ، يا
سيدى . فالأفطار كان سيئا للغاية لدرجة أن الطالبات
لم تستطعن أكله . ولم أجروا أن اسمح لهن أن يبقين
بدون طعام حتى موعد الغداء .

— مدام (*) ، تعرفين أن خطتى فى تربية هؤلاء
الطالبات هى ألا يعتدن عادات الحياة الرغدة . اذا حدث
تلف لوجبة من الوجبات عن دون قصص ، فيجب
تشجيعهن على تحمل الجوع بدون شكوى !

(*) طريقة رسمية لمخاطبة المرأة المقصود احترامها .

فنظرت مس تمبل أمامها مباشرة ، ولم يظهر
على وجهها أى من احساسيسها • وفى هذه الاثناء وقف
مستر بروكلهيرست ويداه وراء ظهره ، وترك عينيه
تطوفان بالمدرسة كلها • وفجأة أغلقهما للحظة
وكانهما قابلتا شيئاً قد صدمهما ، فالتفت وتحدث
بسرعة أكثر عما قبل :

- مس تمبل ، مس تمبل ، هل لهذه البنت
شعر ملفوف ؟ شعر أحمر ملفوف كله يا مدام !
وأشار بعصاه ، وارتعشت يده وهو يفعل ذلك ،
فاجابت مس تمبل بهلوه :

- شعر جوليا ملفوف بطبيعته •

- لقد أعلنت مرات ومرات بأنى أرغب فى أن
يتم ترتيب شعر البنات بشكل مفرد ، متواضع
وبسيط •• مس تمبل يجب قص شعر هذه الفتاة •
وأرى أخرى شعرها كثيف • اخبرى كل الفصل الاول
أن يوجهن وجوههن الى الحائط •

فضغطت مس تمبل منديلها على شفתיها ، وكانها

تخفى ابتسامة • فاستندت للخلف قليلا على مقعدى
لأرى النظرات الساخطة على وجوه البنات • وتفحص
مستر بروكلهيرست رؤوسهن لخمس دقائق ثم أعطى
أمره :

- يجب قص شعورهن جميعا !

كان يبدو على مس تمبل انها ستعترض ، ولكنها
توقفت عند وصول ثلاث زائرات ، سيدات يلبسن
ملابس حريرية مكللة بالفراء •• كان يجب أن يكرن
قليلا حتى يسمعن ملاحظات الجنتلمان ، فشعورهن
كانت مرتبة فى كتل ملفوفة بعناية • وعلمت بعد ذلك
أنهن زوجة مستر بروكلهيرست وابنتاه ، ولقد فحصن
غرف النوم وذكرن عيوباً كثيرة •

وأثناء مراقبتى للمنظر الذى أمامى بشغف زائد ،
لم أهمل التفكير فى سلامتى الشخصية ، لذلك جلست
مستندة جيدا على مقعدى وأمسكت بكتابى بطريقة
أخفى بها وجهى وكنت أنجح فى عدم لفت انتباه أحد
الى ، لولا انزلاق كتابى من يدى محدثا صوتا عاليا ••

وفى الحال التفتت كل العيون نحوى . فقال مستر بروكلهريست :

- بنت مهملة ! انها التلميذة الجديدة ، يجب
الآ أنسى بأن لى كلمة أقولها عنها ، دعوها تحضر الى
هنا .

لم استطع التحرك بنفسى لولا أن بنتين أكبر منى
أوقفتانى على قدمى ودفعتانى نحو الحكم الرهيب .
- احضرن هذا الكرسى ، وضعن البنت فوقه .
كان كرسيا عاليا جدا ، فاصبحت الآن فى
مستوى وجه مستر بروكلهريست ، وقال :

- سيداتى ، مس تمبل ، ايتها المدرسات
والطالبات ، كلكن ترون هذه البنت ؟ أنها صغيرة
جدا . من يعتقد أنها كانت خادمة للشيطان من قبل ؟
يجب أن نبتعدن عنها . تجتنبن مصاحبته ولا تلعبن
معهما أو تتحدثن اليها . ويجب أن تراقبنها يا مدرسات
ومحضر كلماتها وأعمالها جيدا . هذه البنت ، هذه
الطفلة كاذبة !

وتلا ذلك فترة صمت ، وأثناءها همزت أفراد عائلة بروكلهيرست رموسهن وقلن « يا للعار ، واستمر مستر بروكلهيرست قائلاً :

— علمت ذلك من ولية أمرها ، السيدة الكريمة التي تبنتها وتولت تربيتها كابنة لها ، حتى أصبحت ناكرة للجميل فأجبرت السيدة الفاضلة أن تفصل بينها وبين أولادها ، خوفاً عليهن من سلوكها السيئ .

وتحرك نحو الباب مع عائلته ، والتفت في آخر لحظة ، قائلاً :

— دعوها تقف لمدة نصف ساعة على الكرسي ولا تدعن أحداً يتحدث إليها بقية اليوم !

وهكذا كنت أنا القائلة بأننى لا أستطيع تحمل عار الوقوف فى وسط الحجرة ٠٠ أقف الآن موصومة بالعار علنا ٠٠ لا توجد كلمات تصف أحاسيسى . ولكن الدموع بدأت تخرج عن سيطرتى ، ومرت هيلين أمامى ، ورفعت عينيها وابتسمت .

وبطريقة ما غريبة شحنتنى بشـجاعتها .
فجففت دموعى ورفعت رأسى واتخذت وقفة ثابتة
على الكرسي ٠٠ !

الفصل التاسع

مس تمبل

وقبل افتهاء النصف ساعة رن الجرس معلنا
انتهاء الدراسة وذهب الجميع الى حجرة الطعام لتناول
الشاي . فتجاسرت الآن على النزول وانسللت الى
الركن . وبدأت الشجاعة التي ساندتني تذبل وشعرت
بانى بائسة تماما لدرجة أننى غصت على الارض
بوجهى ، وبكىت ..

لقد نويت أن أكون صالحة ومجتهدة تماما فى
لوود ، واعقد صداقات كثيرة ، واناال الاجترام والحب .
ولقد انجزت تقريبا فى الفصل وحصلت على الثناء من

مدرساتى ونلت محبة زميلاتى وعاملتنى من منهن فى
سنى كند لهن . لكن الآن ، ولت آمالى كلها ولا أرغب
الا فى الموت ..

وأحسست باقتراب شخص ما .. وكانت هيلين
بيرنز . لقد أحضرت قهوتى وخبزى وقالت :
- هيا ، كلى شيئا !

ولكنى أبعدت كليهما عنى ، وأجهشت فى البكاء
.. وقلت لها :

- هيلين ، لماذا تبقين مع بنت يعتقد كل شخص
أنها كاذبة ويحتقرها كل انسان ؟

- جين ، أنت مخطئة . لا أحد فى المدرسة
يكرهك أو يحتقرك . كثيرات يشفقن عليك .. أنا
متأكدة من ذلك .

- كيف يشفقن على بعد ما قاله مستر
بروكليهرست ؟

- ان مستر بروكليهرست ليس لها ، ولا هو

حتى رجل عظيم مقبول .. انه غير محبوب هنا . اذا
كان قد عاملك بمحابة خاصة لوجدت لك أعداء .
ومعظم البنات سيمطفون عليك في الخفاء ..

وربما تنظر لك المدرسات والتلميذات ببرود
ليوم أو اثنين ، ولكن هناك شعورا بالصدقة في
قلوبهن . بالاضافة يا جين ...

ثم توقفت عن الكلام ، فسالتها :
- ماذا يا هيلين ؟

- اذا كرهك العالم كله واعتقد انك شريرة ،
بينما ضميرك راض عنك ، يمكنك أن ترفعي
رأسك .

وسكت عن البكاء . لقد هدأتني هيلين . وأرحت
رأسي على كتفها ، ووضعت ذراعي حول خصرها . ولم
نجلس طويلا هكذا ، اذ جاءت مس تمبل ، وقالت :

- لقد جئت بفرض أن أجهدك يا جين اير .
أريدك في غرفتي ، وطالما هيلين بيرنز معك ، فلتأت
أيضا .

وتبعناها الى حجرة جلوسها حيث نادتنى الى
جانبها . وسالتنى ناظرة الى أسفل نحو وجهى :
- هل انتهى كل شيء ، هل بكيت بما فيه
الكفاية ؟ !

- لن أفعل ذلك مطلقا .

- لماذا ؟

- لأننى اتهمت بشكل خاطيء وأنت يا مدام
وكل واحدة أيضا ستعتقد بأننى شريرة .
- سنعتقد ما سوف تبرهنينه عن نفسك
يا طفلى . استمرى فى سلوكك كبنت طيبة وسوف
ترضينا جميعا ..

- حقا يا مس تمبل ؟

- أجل سترضينا . والآن يا جين ، تعرفين
عند اتهام المجرم عادة ما يسمح له بالحديث المدافع
عن نفسه . لقد تم اتهامك بالكذب ، دافعى عن نفسك
لى قدر ما تستطيعين . قولى ما تقترحه ذاكرتك من
حقائق ، لكن لا تضيفى شيئا من عندك !

وهكذا بعدما شجعتنى ، فكرت قليلا لارتب
تسلسل قصتى ثم أخبرتها بتاريخ طفولتى . وشعرت
أثناء سردى انها تصدقنى تماما .

وفى مجرى القصة ، ذكرت أن مستر لويد قد
جاء ليرانى أثناء مرضى . وعندما انتهيت ، نظرت الى
مس تمبل لعدة دقائق فى صمت ، ثم قالت :

— اننى أعرف مستر لويد . سأكتب له . وإذا
كانت اجابته مرضية ستبرئين بشكل علنى من
الاتهامات التى وجهت اليك . اما بالنسبة لى فانت
بريئة تماما الآن .

وقبلتنى وظلت محتفظة بى بجانبها ، حيث كنت
قائمة جدا بوقوفى ثم اتجهت لمخاطبة هيلين بيرنز :

— كيف حالك اليوم يا هيلين ؟ هل سمعت

كثيرا ؟

— ليس كثيرا تماما يا مدام ، شكرا لك ..

— والألم الذى فى صدرك ؟

— أفضل قليلا .

وسرحت مس تمبل بتفكيرها قليلا . ثم دقت
الجرس وطلبت شايًا . ودعنتي وهيلين للجلوس على
المائدة ونشرب ، وفتحت خزانة وأخرجت منها كعكة
كبيرة . ونظرت إلينا بابتسامة أثناء استمتاعنا
بالطعام ، إنها مناسبة نادرة بالنسبة لنا .

وبعد الشاي دعتنا ثانية إلى المدفأة . فجلسنا
على جانبها . وأنصت باحترام وأعجاب للمحادثة بينها
وبين هيلين . ويبدو أن الوجبة والنار الساطعة
وحضور المدرسة المحبوبة حرك شعور هيلين وكسر
صمتها . فكانت ملامحها الدقيقة تبدو مليئة بالحياة ،
وكانت عيناها الذكيتان تومضان أثناء تحدثها مع مس
تمبل عن أشياء لم أسمع عنها مطلقًا . عن أم وأزمان
في الماضي وعن بلدان بعيدة وعن كتب وكتاب
يا لها من خزائن للمعرفة التي يملكانها ! كم من الكتب
قد قرأها !

وسرعان ما رن جرس وقت النوم . ولا يمكن
السماح بأي تأخير . فقبلتنا مس تمبل وقالت :

- بارك الله فيكما يا بناتى !

وبعد هذه الحادثة بحوالى أسبوع ، نادى مس
تميل المدرسة مجتمعة ، وأعلنت بأن استفسارا قد
جرى فى الاتهامات الموجهة ضد جين اير ، وأقرت بأنها
كانت سعيدة جدا لامكانها أن تؤكد طهارتها التامة .
فسلمت عندئذ المدرسات على باليد ، وسرت عبر
صفوف رفيقاتى وأنا أشعر بسعادة غامرة ..

وهكذا ارتحت من حمل ثقيل ، ومن تلك الساعة
بدأت العمل مرة أخرى . فذاكرت باجتهاد ، وكللت
بالنجاح . وتحسنت ذاكرتى ، وفى خلال أسابيع قليلة
انتقلت الى فصل أعلى . وفى أقل من شهرين سمحوا
لى أن أبدأ اللغة الفرنسية والرسم . وتحرك الآن
طموحى ، ورغم صعاب حياتى ، فلن أغير لوود من
أجل جميع رفاهيات جيتسهيد ..

الفصل العاشر

وفاة هيلين

ومع اقترابه الربيع ، قلت متاعب لوود . فلم تعد الأمسيات باردة بشكل قارس ، وذابت الثلوج وأصبحت الرياح الحادة أكثر اعتدالا . وأصبح يمكننا حاليا التمتع بساعة اللعب التي نقضيها في الحديقة . وأيام الخميس بعد الظهر (نصف عطلة) كنا نذهب لنتنزه ، وعلمت لأول مرة الاستمتاع بالمناظر الطبيعية الجميلة ، في التلال الملاصقة لوادينا المليء بالقابات والأشجار ، والزهور ، وجداول الماء المندفعة كلها تبهجنى .

ولكن بالرغم من أن المنطقة المجاورة كانت ممتعة
الأنها غير صحية . فقبل حلول شهر مايو هاجمت
الحصى حجرة الدراسة المزدحمة وحولت الملجأ الى
مستشفى .

وكانت ضالة كمية الطعام مع نزلات البرد المهمة
قد جعلت معظم التلميذات يصبين بالمرض بسهولة . .
ورقعت خمس وأربعون من ثمانين بنتا مريضات في
وقت واحد .

تفرقت الفصول وأصبحت النظم والقواعد نسيا
منسيا . . وسمح للقلة التي بقيت بصحة جيدة بحرية
لاحد لها تقريبا ، لأن الطبيب أصر على ضرورة التمارين
المتكررة للحفاظ عليهن أصحاء . أما المرضى فلقد
استوعبن انتباه مس تبيل كله .

وكانت المدرسات مشغولات تماما في مساعدة
البنات ، اللاتي كن محظوظات لوجود أصدقاء أو أقارب
على استعداد لانتشالهن من الخطر ، في لم أمتعتهن
وترحيلهن . وكثيرات تركن فقط ليتمتن .

ولكنى انا والباقيات اللاتي ظللن فى صحبة
جيدة أخذنا نفعل ما نشاء ، فنذهب أينما يحلو لنا .
ولم يأت مستر بروكلهيرست ولا عائلته بالقرب من
لوود حاليا . وعشنا لأيام كاملة خارج الجدران .

وأين كانت هيلين بيرنز فى هذه الأثناء ؟
كانت مريضة . . لقد انتقلت لعدة اسابيع بعيدا عن
مرآى فى غرفة بالطابق العلوى . ولم تكن ، كما
قيل لى ، فى نفس الجزء من المنزل الذى فيه مرضى
الحمى ، حيث أن مرضها كان مرضا رئويا ، وهو
المرض الذى اعتقدت خطأ أنه شئ سهل يمكن علاجه
بشكل أكيد مع الوقت ومداومة العلاج .

وأكد هذه الفكرة انها نزلت مرة أو مرتين فى
أوقات الظهيرة المشمسة الدافئة ، وكانت تأخذها مس
تمبل الى الحديقة ، ولكن لم يكن مسموحا لى لالذهب
وأتحدث معها .

وفى إحدى الأمسيات ظهر الطبيب فى ساعة
غير عادية ، اشارة بأن احدا من مريضة جدا . كنت

بالقرب من الباب الامامى عندما غادر ، وركضت الى
المرضة التى كانت تتكلم معه .
- كيف حال هيلين بيرنز ؟

فكانت الاجابة :

- ضعيفة جدا .

- ماذا قال الطبيب عنها ؟

- قال انها لن تكون هنا طويلا .

فى الاوقات العادية كنت سافهم من هذه الجملة
أن معناها مجرد أن هيلين ستذهب الى بيتها . . ولم
اشك فى أنها تعنى أنها ستموت ، لكنى أدركت ذلك
فورا الآن ، فانتابتنى صدمة ذعر ، ثم احساس قوى
بالأسى ، ثم رغبة وحاجة لرؤيتها . وسألت فى أى
غرفة ترقد . فقالت الممرضة :

- انها فى غرفة مس تمبل .

- هل لى أن أذهب وأتحدث اليها ؟

- لا يا فتاتى .

كانت الساعة التاسعة ، ومس ميلر تنبأدى
التلميذات للذهاب للنوم . وذهبت مع الأخريات .
وبعد ساعتين ، نهضت بلطف وتسلمت بدون
حذاء فى البحث عن غرفة مس تمبل . كانت فى الجانب
الآخر من المنزل ، ولكنى أعبرف طريقى . مرت
بسرعة على غرفة الحمى ، خشية أن تسمعنى الممرضة
التي تجلس متيقظة طوال الليل .

وبجوار سرير مس تمبل كان هناك سرير آخر
أصفر . رأيت شكل جسم تحت ملاءة السرير . وكانت
الممرضة التي تحدثت إليها فى الحديقة تجلس على
كرسى وهي نائمة . ولم أر مس تمبل . وعلمت فيما
بعد أنها ذهبت بجوار سرير مريضة أخرى .
واقتربت ، وهمست بركة :

— هيلين ! هل أنت مستيقظة ؟

فتحركت قليلا ، ورأيت وجهها الهادى الباهت ،
وسالت بصوتها اللطيف المهدود :

— أهذه أنت يا جين ؟

فقلت فى نفسى :

- أوه ! أنها لن تموت • انهم مخطئون • والا ما كانت تستطيع أن تتكلم وتنظر بكل هذا الهدوء •
- لماذا أتيت الى هنا ، يا جين ؟ انها بعد الساعة الحادية عشرة • لقد سمعت الساعة تدق منذ دقائق •
- أتيت لأراك يا هيلين • سمعت انك مريضة جدا ، ولم أستطع النوم حتى أتحدث معك •
- جئت لتقولى لى وداعا اذن • لقد اخترت الوقت المناسب على ما اعتقد •

- هل ستذهبين الى مكان ما يا هيلين ؟

- أجل ، الى مثواى الأخير •

- لا ، لا يا هيلين !

- وتوقفت فى يأس • وبينما حاولت ايقاف دموعى بدأت هيلين تسعل •

وبعد فترة صمت طويلة همست قائلة :

- اننى سعيدة جدا ، يا جين ، وعندما تسمعينهم

يقولون أننى مت فلا يجب أن تحزنى • يجب أن نموت
جميعا يوما ما ، والمرض الذى ينقلنى لطيف وتدرى
وعقل فى راحة • ولا أترك أى أحد لياسف على
كثيرا • لدى أب فقط ، ولقد تزوج مرة أخرى حديثا ،
فلن يفقدنى • انى ذاهبة الى الله •

ثم اضللت بعد هنيهة :

- كم أنا مرتاحة ! نوبة السعال الأخيرة قد
أتعبتنى قليلا • أحس كأنى أستطيع النوم • لا تتركينى
يا جين • أحب أن تكونى قريبة منى !
- سابقى معك يا هيلين العزيزة • لن يبعدنى
عنك أحد •

ورقدت بجانبها • وقبلتنى ونمنا فى الحال •
وعندما استيقظت ، كان ضوء النهار قد سطع • •
وكانت هيلين • • قد ماتت !

الفصل الحادى عشر

اعلان عن وظيفة

اختفت الحمى بالتدريج من لوود ، لكن ليس قبل أن يلفت عنفها وعدد المعذبات انتباه الجمهور للمدرسة وما حدث فيها . . . وأجرى استفسار عن سبب ظهور المرض ، وأصبحت حقائق مختلفة معروفة حركت غضب الجمهور بأعلى درجاته : وضع المبنى غير الصحى ، نوع وكمية طعام البنات ، توصيلة المياه غير النقية ، ملابس الطالبات البائسة ، ومكان المعيشة المزدحم . . . كل هذه الأشياء تم اكتشافها ومعرفتها وجلبت العار على مستر بروكلهيرست ، ولكنها جلبت تحسينات للمدرسة أيضا .

وشارك عديد من الأثرياء بالمنطقة لبناء ملجا
أفضل في مكان أصح . ووضعت نظم جديدة ، وقدمت
تحسينات في الطعام والملابس ووضعت ادارة المدرسة
في أيدي لجنة من الخبراء . . . وبقي مستر بروكلهيرست
مستثلا عن نفقات المدرسة ، ولكن وضعت نشاطاته
تحت المراقبة من قبل رجال أفاضل ذوي عقول أكثر
كرما وعطاء . وهكذا تحسنت المدرسة ، وأصبحت مع
الوقت مكانا مفيدا حقا .

ظللت بها لمدة ثماني سنوات . وكانت حياتي
أثناء ذلك الوقت بدون تغيير ، ولكني لم أكن غير
سعيدة ، لأنني لم أكن خاملة . وأتيحت لي فرصة تعليم
ممتازة . وانشغلت غراما ببعض من دراساتي ، وازدادت
رغبتي في أن أبذل أفضل ما عندي في تلك الدراسات .
وكنت أجد متعة عظيمة في ارضاء مدرساتي . . وحدثني
كل ذلك على الاستمرار في التفوق . . ومع الوقت
أصبحت البنيت الأولى في الفصل الأول ، ثم أصبحت
مدرسة لمدة سنتين .

واستمرت مس تيمبل حتى الآن كمستولة عن
لوود . ولتدريسها أدين لأفضل جزء من تعليمي .
وكانت صداقتها وصحبتها راحة لي . . لقد كانت
بالنسبة لي في مكانة الأم والمدرسة والصديقة . ولكنها
في هذه الفترة تزوجت ، وغادرت مع زوجها الى منطقة
بعيدة من البلاد .

ومنذ ذلك اليوم ، لم أعد نفس الشخص .
وعالمى أصبح لعدة سنين عالم لوود الضيق والذي يبدو
خاويا الآن . واتذكر أن العالم الحقيقي كان أرحب ،
ويتيح شتى أنواع الخبرات لهؤلاء الذين لديهم الشجاعة
للخروج اليه . ولقد قضيت جميع عطلاتي في لوود . .
ولم تكتب لي مسز ريد ولا عائلتها ولم يأتوا لزيارتي
أبدا . وكانت نظم المدرسة ، وواجبات المدرسة ،
وعادات المدرسة - هي كل ما أعرف . وهيمنت على
رغبة جامحة مفاجئة للحرية . . !!

وسالت نفسي :

- ماذا أريد ؟ مكان جديد ، منزل جديد ، وبين

وجوه جديدة وفي ظروف جديدة .. هذا هو أفضل ما
استطيع أن أتطلع اليه .. ولكن كيف يحصل الناس
على مكان جديد ؟ .. انهم يقدمون طلبهم لأصدقاء ،
على ما أعتقد .. وليس لى أصدقاء .. فماذا يفعل
الناس فى مثل هذه الحالة ؟!

لم أستطع الرد على ذلك .. ولكن بعد نوم ليلة
جاءت الفكرة بهدوء وبشكل طبيعى الى عقلى .. يجب
أن أعلن عن ذلك !

استيقظت مبكرا جدا .. وانتهيت من كتابة اعلانى
قبل أن يرن جرس الاستيقاظ بالمدرسة . وكان
كالآتى :

**فتاة اعتادت على التدريس ترغب فى الحصول على
وظيفة عند عائلة خاصة ، أطفالها تحت سن الرابعة
عشرة . انها مؤهلة لتدريس المواد العادية بالتعليم
الانجليزى ، مع اللغة الفرنسية والرسم والموسيقى .
العنوان . ج . ١٠ . مكتب بريد . لووتون .**

وبعد الشأى ، طلبت اذنا من رئيسة المدرسات
الجديدة للذهاب الى مدينة لووتون المجاورة . وذهبت

حيث زرت محلا أو اثنين ، وأرسلت خطابي الى الصحف
في صندوق مكتب البريد ، وعدت بقلب مرتاح .
وبدا الاسبوع التالي طويلا ولكنه في النهاية
انتهى ، وذهبت مرة أخرى الى المدينة الصغيرة .
وكانت المستولة عن مكتب البريد سيئة عجوز بنظارة ،
فسألتها :

— هل من رسائل لأجل ج . ١٠ ٠٠ ١٩

فحملت في من فوق نظارتها ، ثم فتحت درجا .
وأخفت تراجع الأوراق التي فيه لمدة طويلة حتى بدأت
أياس . وأخيرا أمسكت برسالة لمدة خمس دقائق
تقريبا أمام نظارتها ثم أعطتها لي بنظرة فضول وعدم
ثقة . فسألتها .

— الا يوجد الا واحدة ؟

فأجابت :

— لا يوجد غيرها .

فوضعتها في جيبى وأسرعت عائدة . كانت
الواجبات تنتظرني بالمدرسة . كان على أن أجلس مع

البنات أثناء ساعة دراستهن ، ثم كان دورى فى ترتيب الصلاة ، ثم الاشراف على النوم بالمدرسة . وجاء الليل قبل أن أكون حرة لافتح الرسالة ، التى كانت مختصرة كالآتى :

إذا كانت ج ١٠ . التى أعلنت يوم الخميس الماضى
حاصلة على المؤهلات المذكورة ، وإذا كانت قادرة على
تقديم الباتات مرضية عن الشخصية والمقدرة الطبية .
يمكن تقديم وظيفة لها ، حيث توجد تلميذة واحدة
فقط ، بنت صغيرة عمرها أقل من عشر سنوات .
المرتبة ثلاثين جنيها فى السنة . مطلوب من ج ١٠ .
أن ترسل باجابتها الى مسز فيرفاكس ، ثورنيلد ،
قرب ميلكوت .

فحصت الرسالة مدة طويلة . كانت الرسالة
مكتوبة بطريقة الخط القديمة وبطريقة مترددة نوعا ما ،
وكان كاتبها امرأة عجوز . كانت مرضية والوظيفة
تبدو محترمة . والمرتبة المذكور كان ضعف ما أكسبه .

وفى اليوم التالى أفصحت عن نيتى الى رئيسة
المدرسات الجديدة ، وطلبت منها أن تذكر الموضوع

للجنة أو لمستر بروكلهيرست وترى اذا كانوا سيؤيدون
طلبى .

وأعلن مستر بروكلهيرست بأنه يجب الكتابة
لمس ريد حيث أنها ولية أمرى الطبيعية .

وأرسلوا بالتالى رسالة الى هذه السيدة التى
ردت قائلة بأننى يمكننى أن أفعل ما يحلو لى ، لأنها
تخلت ، منذ مدة طويلة ، عن أى شىء يخصنى . وذهب
عذا الرد الى اللجنة ، وفى النهاية أعطونى اذنا رسميا
للوطفة الجديدة ، مع خطاب توصية موقع من قبل
أعضاء اللجنة .

وأرسلت نسخة من هذا الخطاب الى مسز
فيرفاكس ، ثم حصلت على اجابة السيدة ، تعلن فيها
رضاهما وتحدد الموعد الذى يجب أن أبدا فيه واجباتى
كمربية للاطفال فى منزلها .

الفصل الثانى عشر

فى ثور نفيلد

كنت وحيدة تماما فى العالم .. احساس جديد
غريب لفتاة قليلة الخبرة .. لقد تركت لوتون الساعة
الرابعة صباحا ، والآن والساعة الثامنة من مساء نفس
اليوم حيث نزلت فى فندق جورج فى ميلكوت : وهى
بلدة صناعية كبيرة ، منتظرة من يأتى لمقابلتى لياخذنى
الى ثور نفيلد ..

ولقد تحول أول احساس بالمغامرة الى احساس
بالخوف وبجميع أنواع الشكوك التى أزعجتنى ..
وبعد نصف ساعة قرعت الجرس ، وصالت
الخدام الذى جاءنى :

- هل يوجد مكان قريب من هنا اسمه ثورنفيلد ؟

فاجابنى :

- ثورنفيلد ؟ لا أدري يا مدام . سأستفسر . .

وذهب ، ولكنه ظهر مرة أخرى بعد قليل وقال :

- هل اسمك جين اير ، يا آنستى ؟

- أجل .

- يوجد شخص فى انتظارك .

عند مدخل الفندق كان يقف أحد الرجال . .
ورأيت بشكل باهت على ضوء مصباح الشارع ، عربة
بحصان واحد . ففكرت :

- أظن بالحكم على بساطة الخادم والعربة أن مسز
فيرفاكس ليست من أهل الموضة الحديثة . . على كل
فهذا أفضل بالنسبة لى . . لقد عشت مرة فقط بين
اناس أنيقين وكنت بائسة جدا معهم . ترى هل
تعيش بمفردها مع هذه الفتاة الصغيرة . ادعو الله
الا تكون مثل مسز ريد ، لكن اذا كانت كذلك فانا غير

مجبرة على البقاء معها ، فإذا لم أوفق معها ، يسكننى
الاعلان ثانية عن وظيفة أخرى .

كانت الطرق شاقة والليل كان مليئا بالضباب .
وترك السائق الحصان يسير الهوينى طول الطريق .
ومرت ساعتان قبل أن يترجل ويفتح البوابة التى
مررنا عبرها وسرنا ببطء صاعدين طريقا محفوها
بالأشجار حتى أتينا الى واجهة البيت ففتحت الحلاصة
الباب وقالت :

— هل تسمحى أن تأتى من هنا ، يا مدام ؟

فتبعتها عبر صالة مربعة ، وقادتنى الى غرفة ذات
منظر جميل . كانت غرفة مريحة صغيرة . وكانت
هناك منضدة مستديرة بجانب مدفأة مبهجة ، وكرسى
ذو مساند وظهر مرتفع من طراز قديم جلست عليه
سيدة عجوز ضيئلة ونظيفة جدا ، ترتدى غطاء رأس
مثل الأرامل ، ورداء حريريا أسود بمريلة بيضاء كالثلج
مربوطة حول وسطها . . وكانت مشغولة بالحياطة ،
وتجلس قطة سوداء كبيرة عند قدميها . وكان اللقاء

مشجعا لمربية أطفال جديدة ، لا أتصور أكثر منه .
فعندما دخلت قامت السيدة العجوز وجاءت نحوي
للقائى .

- كيف حالك يا عزيزتى ؟ أخشى أن تكونى
تعبت من الرحلة الطويلة ، وجون يقود ببطء شديد .
لا بد أنك تشعرين بالبرد . تعالى الى المدفأة ..

- مسز فيرفاكس ، على ما أعتقد ؟

- أجل ، تفضل بالجلوس ..

وقادتني الى كرسيها وبدأت تخلع معطفي .
فرجوتها ألا تزعج نفسها . ثم طلبت لى مشروباً ساخناً
وطعاماً ، وخرجت لترى أمتعتى وتتأكد من وصولها الى
غرفتى .

واخلت الفكر :

- انها تعاملنى كزائرة . هذا ليس كما سمعت
عن معاملة مربيّات الأطفال ..

وشعرت بالارتباك لأنى أصبحت هدفاً للانتباه
أكثر مما كنت عليه من قبل فى حياتى كلها .

وسالتها :

- هل ساستمتع برؤية الأنسة فيرفاكس
الليلة ؟

- الأنسة فيرفاكس ؟ .. آه تقصدين الأنسة
أديل فارينز ! .. فارينز هو اسم تلميذتك الجديدة .
- حقا ! اذن هي ليست ابنتك ؟

- كلا .. ليس لدى أسرة . اننى مسرورة جدا
أنك جئت .

ثم اردفت قائلة :

- ستكون المعيشة هنا ممتعة مع رفيقة مثلك .
فالانسان يشعر فى الشتاء بالوحدة الكثيرة مع الخدم
فقط . ولكنى لن أتسبب فى ابقائك لساعة متأخرة
الليلة . ان الساعة حوالى الثانية عشرة ، ولقد كنت
على سفر طوال اليوم .

واخذت شمعتها . وبعد أن تأكدت من أن الباب
الامامى محكم الاغلاق قادتني الى الطابق العلوى . وملا

الهواء البارد السلم المعتم والممر الطويل • وكنت
مسرورة بأن أجد غرفتي صغيرة ومؤثثة بطريقة عادية
جديثة ..

الفصل الثالث عشر

ضحك غريب

بدأت غرقتى فى الصباح التالى ساطعة وزاهية
فى ضوء الشمس ، مع ألوان ورق الحائط وسجاد
الأرضية .. انها ليست مثل الحشب العارى والجص
الملون فى لوود وهو الذى فرحت به عند رؤيتى له
مرة .. ربما ستبدأ فترة أسعد من حياتى

ونفضت وارتديت ملابسى بعناية وكانت ملابسى
وملامحى بسيطة ، ولكنى كنت نظيفة بالطبيعة وكان
فستانى الأسود يناسبنى تماما .

وعند نزولى الى الطابق الأسفل وجدت باب الصلاة

مفتوحا فخطوط خارجة • كان صباح خريف جميل ،
وتقدمت فوق الأرض المغطاة بالأعشاب ورفعت بصرى •
وفحصت واجهة المنزل •• أنه مكون من ثلاثة طوابق
من الحجم الكبير •

وأخذت أتمتع بالهواء النقي الصحو عندما ظهرت
مسز فيرفاكس عند الباب ، وقالت :

- هكذا ! أسرع في الخروج ؟ أرى أنك ممن
يستيقظون مبكرا • هل أعجبتك ثورنفيلد ؟

فاخبرتها اننى اعجبت بها جدا ، فقالت :

- أجل ، انها جميلة حقا ، لكن أخشى أنها
ستخرج عن ترتيبها ونظامها ، الا اذا قرر مستر
روتشستر أن يأتى ويعيش هنا بصفة دائمة •

فسألتها :

- مستر روتشستر ! من هو ؟

فاجابت بهدوء :

- صاحب ثورنفيلد •

- لكنى اعتقدت أن ثورنفيلد ملكك .
- ملكي ؟ أوه ، كلا يا ابنتي ، يالها من فكرة !
- اننى مجرد مدبرة المنزل .
- والبنت الصغيرة - تلميذتى ؟
- مستر روتشستر هو الوصى عليها ، ولى امرها ، ولطب منى أن أبحث لها عن مربية .. هاهى قادمة مع وصيفتها .
- واتضح عندئذ الغموض . فهذه الأرملة الطيبة صغيرة الحجم ليست سيدة البيت ، والتماثل بينها وبينى شيء حقيقى : فأحسست بسرور أكثر .
- وأثناء انشغالى بالتفكير فى هذه المعلومة خامت بنت صغيرة تركض .. ربما كانت فى السابعة أو الثامنة من عمرها ، ذات وجه شاحب وملامح صغيرة ، وشعرها مجدول فى ضفائر تصل الى خصرتها ..
- فقالت لها مسز فيرفاكس :
- صباح الخير ، آنسة أديل . تعالى تحدثنى مع السيلة التى ستدرس لك .. !

فاقتربت وقالت باللغة الفرنسية مشيرة الى
ومخاطبة وصيقتها :

- هل هي مربيتي ؟

فاجابتها الوصيقة بنفس اللغة :

- اجل ، بالتأكيد .

فسالت :

- هل هما أجنبيتان ؟

- الوصيقة اجنبية ، وأديل ولدت في باريس ،
واعتقد أنها لم تفادرها الا منذ ستة شهور . وعندما
جاءت الى هنا لم تستطع أن تتكلم باللغة الانجليزية ،
لكنها الآن تستطيع التحدث بها قليلا .

من حسن الحظ أنى كنت أتميز بميزة أصبحت
الآن نافعة ، وهى أنى تعلمت اللغة الفرنسية على يد
سيده فرنسية ، وتمرنى على المحادثة معها دائما .
فخاطبت تلميذتى فى الحال بلغتها ، وعلى مائدة الافطار
بدأت تتحدث معى بسعادة .

وبعد الطعام ، ذهبت مع أديل الى المكتبة التى أمر
مستر روتشستر أن تستخدم كحجرة دراسة . ووجدت
تلميذتى مطيعة ، ولكنها غير معتادة على عمل الواجبات
من أى نوع كانت . وشعرت أنه ليس من الحكمة أن
أكون شديدة معها من البداية ، لذلك عندما جعلتها
تتعلم قليلا من الأشياء ، وكنا قرب منتصف النهار ،
سمحت لها بالعودة الى وصيفتها .

وإثناء صعودى الى الطابق العلوى ، خاطبتنى
مسنز فيرفاكس عبر الصالة :

- انتهت ساعات مدرستك الصباحية ، على
ما أعتقد .

فدخلت الى الغرفة التى كانت ترتبها وقلت وانا
أتطلع حولى :

- يالها من غرفة جميلة !

- أجل انها غرفة الطعام . لقد فتحت لثوى
النوافذ لاسمح بقليل من الهواء وأشعة الشمس . فكل
شئ مصاب بالرطوبة فى الغرف التى نادرا ما تستخدم .

- انك تحافظين على ترتيب الغرف بشكل جيد
يا مسز فيرفاكس !

- حسن ، مس جين رغم أن زيارات مسستر
روتشستر هنا نادرة فهي دائما مباغتة وغير متوقعة ،
وهو يكره ألا يجد كل شيء جاهزا لاستقباله .

- هل مستر روتشستر صعب في ارضائه ؟

- ليس هكذا بالضبط ، ولكنه له أذواق وعادات
السادة الأفاضل .

- لكن اليس له خصوصيات ؟

- انه غريب بعض الشيء . لقد سافر كثيرا ،
وشاهد الكثير من العالم . اعتقد أنه حاذق ، لكنني لم
أتحدث معه كثيرا ، فمن الصعب وصفه ، ولكنك
لا تستطيعي أن تكوني متأكدة عندما يتكلم ، إذا كان
يمزح أو جادا في كلامه .

وعندما تركنا غرفة الطعام ، اقترحت أن تلف
بي لتريني بقية المنزل ، فتبعتها الى الطابق العلوي
والسفلي وأنا أبدي اعجابي أثناء تجوالى . كانت

الحجرات الامامية الكبيرة فخمة وكانت بعض من
حجرات الطابق الثالث رغم العتمة تحتوى على اثاثات
قديمة مذهشة . فسألت :

- هل ينام الخدم فى هذه الغرف ؟

- كلا ، انهم يحتلون مجموعة من الغرف
الاصفر حجما فى المؤخرة .

- ليس عندكم اشباح هنا ، على ما اعتقد ؟

فاجابت مسز فيرفاكس وهى تبسم :

- كلا . لم اسمع بذلك . هل تاتى لترى المنظر
من السطح ؟

تابعت الصعود على سلم ضيق ثم سلم خشبي .
ثم تطلعت ببصرى الى اسفل فرأيت المنطقة منبسطة تحتى
مثل الخريطة : مروج ، وحقول ، وغابات ، وكنيسة ،
وطريق ، وقرية ، وتلال هادئة .

وعندما تحركت للنزول ، بقيت مسز فيرفاكس
ورائى للحظة لاغلاق الباب المؤدى الى السطح . فوصلت
الى الطابق الثالث وانتظرت فى الممر الطويل الفاصل

بين الحجرات الأمامية والخلفية .. كان ضيقا منخفضا
ومظلما له نافذة واحدة في نهايته .

وأثناء سيرى بهدوء ، سمعت مالا يمكن توقعه
في مثل هذا المكان الهادئ سمعت ضحكة .. كانت
ضحكة غريبة ، واضحة ، غير طبيعية وغير مرحة على
الاطلاق . فتسمرت في مكاني . وتوقف الصوت
ولكن لبرهة فقط . ثم عاد الضحك ثانية وبشكل
أعلى . وتضاءل في انفجار مفعم بالضجيج .. ففرحت
عند سماعي قنوم مسز فيرفاكس نازلة على السلم :

— مسز فيرفاكس ! .. هل سمعت هذه الضحكة
العالية ؟ من هذا ؟

فأجابت :

— بعض الخدم ، محتمل . ربما جريس بوول .
إنها تخطط في إحدى هذه الغرف ..
وأحيانا تصاحبها إحدى الخدم ، ودائما ما يثيران
ضجيجا عندما يلتقيان .

وتكررت الضحكة فى نغمتها المنخفضة وانتهت
بهمهمة غريبة .

فنادت مسز فيرفاكس :

- جريس !

لم أتوقع فى الحقيقة الاجابة من أحد ، لأن
الضحكة كانت يائسة وكأنها لشبح . ومع ذلك ، انفتح
الباب القريب منى وخرجت منه خادمة - امرأة بين
الثلاثين والأربعين ، لها قوام مربع ووجه قبيح .

فقالت مسز فيرفاكس :

- ضوضاء زائدة يا جريس . تذكرى الهدوء !

واختفت جريس بامتثال ، ونزلنا نحن السلم
الى الغداء ..

الفصل الرابع عشر

فى الطريق الضيق

لم يعكر صفو الحياة أى شىء فى ثورنفيلد ، وظلت مسز فيرفاكس عطوفة وصدوقة • وكانت تلميذتى نشيطة ، طفلة قلقة ، مدللة نوعاما ، لكنها أصبحت مطيعة وراغبة فى التعلم ، وأحرزت تقدما •

ومرت الشهور : أكتوبر ونوفمبر وديسمبر • وفى أحد أيام يناير أخذت أديل أجازة لأنها كانت مصابة بالبرد • وكان جو بعك الظهر هادئا عذبا • وكانت مسز فيرفاكس قد كتبت رسالة وتريد أن ترسلها بالبريد ، لذا عرضت أن أحملها الى القرية على بعد ميلين •

كانت الأرض عبارة عن جليد شديد التجمد .
 وكان الهواء ساكنا وطريقى منعزلا . . فمشيت مسرعة
 الى أن أحسست بالدفع ، ثم ببطء لأستمع ببهجة هذا
 الوقت وبمنظر الريف . كان الطريق ينحدر فوق
 تل . وعندما سرت نصف المسافة تقريبا ، جلست على
 مرقى (*) يؤدى الى حقل من الحقول . ومن مقعدى
 كنت أستطيع أن ألقى ببصرى الى أسفل فأرى
 ثورنفيك التى ترتفع غاباتها جهة الغرب . . وكانت
 الشمس تهبط لتغيب وأنا ألاحظها ، ثم التفت جهة
 الشرق .

فوجدت على قمة التل من فوقى وجه القمر يصعد
 شاحبا بسبب السحاب ، لكنه أخذ يسطع من دقيقة
 لأخرى . وفى السكون الذى لا يكسر كنت أستطيع أن
 أسمع بوضوح أصواتا باهتة للحياة فى القرية البعيدة ،
 وأسمع أيضا رقرقة العديد من جداول المياه الصغيرة
 التى تجرى فى التلال والوديان .

(*) حجر يوضع بجوار سور أو سياج من الشجيرات يستخدم
 كدرجة لمساعد على تسلقه .

واقترحت جلبة عالية هذه الدمدمات : صوت
خطوات ثقيلة على الجسر . كان جوادا قادما ، والطريق
الضيق الملتوى يخفيه ، لكنه أخذ يقترب . كنت على
وشك القيام من جلستي لكن لما كان الطريق ضيقا ،
جلست ساكنة لأدع الجواد يمر . ولاحث في ذهني كل
أنواع التخيلات مشرقة ومعتمة : فكانت هناك ذكرى
قصص جناح الأطفال مع البنات الأخريات . . . وعندما
اقترب الجواد تذكرت بعض قصص بيسي عن شبح
اتخذ شكل جواد أو كلب وكان يظهر في الأماكن
المنعزلة .

واقترب الجواد جدا ، لكنه لم يظهر بعد ،
عندما سمعت ، بالإضافة الى جلبة أقدامه ، صوت
اندفاع تحت السور وركض كلب كبير كان يشبه
الأسد ، له شعر طويل ورأس ضخم . وتبعه الجواد
يركض ومن فوقه راكبه . . . وورق ، ومشيت بضعة
خطوات ثم التفت ، فلفت انتباهي صوت انزلاق ،
وسقوط مفاجيء . . .

لقد سقط الرجل والجواد ، بسبب الجليد . وعاد

الكلب راكضا ؛ فرأى سيده فى مأزق فنبع بصوت مرتفع ثم ركض نحوى للمساعدة . فنزلت المنحدر الى المسافر الذى كان فى ذلك الوقت ينازع ليحرر نفسه من جواده .

- هل اصبت يا سيدى ؟

اعتقد أنه كان يلعن . على أية حال ، لم يجب بشكل مباشر . فسالت ثانية :

- هل يمكن أن أفعل أى شىء ؟

فاجاب : وهو ينهض مرتكزا على ركبتيه ثم على قدميه :

- لا .. شكرا ..

ونفض الجواد وسكت الكلب عندما أمره ، « كف يا بايلوت ! » ، ثم انحنى المسافر وتحسس حذاءه الطويل وساقه ، ثم جلس على المرقى الذى نهضت من عليه لتوى ، فقلت له :

- اذا كنت قد أصبت ، وتحتاج لمساعدة
يا سيدى ، فيمكننى احضار أحد من « ثورنفيلد هول »
- شِكرًا ، لا يوجد كسر .
ووقف ثانية ولكن مع صرخة الم .

بقى بصيص ضئيل من ضوء النهار مع سطوع
القمر ، فاستطعت أن أراه بوضوح . كان يرتدى
معطفا له ياقة من الفراء ، وله وجه داكن بلامع صارمة
وجبهة ثقيلة . وكانت عيناه وحاجباه المنخفضان تبدو
عليهما مظاهر الغضب ..

ويبدو انه تعدى سن الشباب ، لكنه لم يصل
منتصف العمر بعد .. لم أشعر بخوف منه ، بل
شعرت بقليل من الارتباك . اذا كان شابا صغيرا حسن
المظهر ، أو اذا كان ابتسم ورفض عرضي بمرح وامتنان
لكنت ذهبت فى طريقى ، ولكن خشونة المسافر جعلتنى
على راحتى ، وعندما لوح لى بالذهاب ، بقيت كما كنت
قائلة :

- لا يمكن أن اتركك يا سيدى فى ساعة متأخرة

كهذه ، وفي مكان بمنزل كهذا ، حتى أراك قادرا على
ركوب جوادك •

فنظر الى بشكل مباشر لأول مرة وقال :

- اعتقد انك يجب أن تكوني انت نفسك في
بيتك ، من أين أتيت ؟

- من تحت •

- هل تعيشين تحت •• تقصدين في هذا
المنزل ؟

وأشار الى « ثورنفيلد هول » •

- اجل يا سيدى •

- منزل من هذا ؟

- منزل مستر روتشستر •

- هل تعرفين مستر روتشستر •• ؟

- كلا ، لم أره مطلقا !

- انك لست بخادمة في « الهول » ، بالطبع •
انت ...

ثم توقف ، وبدأت عليه الحيرة بعد أن تطلع الى
ردائي البسيط ، فقلت :

- اننى المربية .

فاجاب :

- آه ، المربية ! لقد نسيت ..

وفى دقيقتين نهض من جلسته ، وعبر وجهه عن
الآلم وهو يحاول التحرك ، وقال :

- يمكنك مساعدتى قليلا ، اذا تكرمت . ارجوك
أن تأتى الى هنا .

فجئت واستمر قائلا :

- معذرة ، فالضرورة تجبرنى أن استخدمك .

ووضع يدا ثقيلة على كتفى ، واستند على بشىء
من القوة ، وتحرك تجاه جواده . وعندما أمسك به ،
تحكم فيه مباشرة وقفز على سرجه ، وقال :

- والآن ، ناولينى سوطى ، انه هناك بجانب

السور !

• ووجدته •

– شكرا • والآن اذهبي الى البيت بسرعة •
وبلمسة كعب اختفى الجواد والكلب والرجل الى
أسفل التل •

وواصلت المسير الى القرية مع رسالتى منفعة
بهذه الاثارة .. كانت حادثة صغيرة ، لكنها كانت
علامة تغيير لساعة من حياتى الفاترة •

ولم اعد أحب العودة الى ثورنفيلد • فالمرور الى
داخلها يؤدى الى عالم هادئ ساكن .. وبقيت فى
الحديقة لفترة حتى دقت الساعة فدخلت •

لم تكن الصالة مظلمة • وانبعث ضوء دافئ غير
عادى من غرفة الطعام ، واستطعت ان أرى ، عبر الباب
المفتوح نار المدفأة ساطعة • وسمعت همهمة أصوات
ورأيت زمرة قرب المدفأة •

فأسرعت الخطى الى غرفة مسز فيرفاكس ، ولكنى
لم أجد أية شمعة ولا مسز فيرفاكس • وبدلا من ذلك
تعرفت على الكلب الكبير الذى كان قابعا على سجادة

أمام المدفأة • فنهض وجاء الى • قرعت الجرس حيث
أردت شمعة ، فدخلت خادمة ، فسألتها :

- كلب من هذا ؟

- لقد جاء مع السيد

- مع من ؟

- مع السيد ••• مع مستر روتشستر ••• لقد
وصل لتوه !

- حقا ! هل مسز فيرفاكس معه •

- أجل ، والآنسة أديل • انهم فى غرفة الطعام ،
وذهب جون لاحضار الطبيب لان سيدى وقع له حادث •
لقد سقط جواده ••

الفصل الخامس عشر

محادثة مع مستر روتشستر

ولعدة أيام لم ألتق بمستر روتشستر الا قليلا .
ففي الصباح كان يبدو منشغلا بالاعمال ، وبعد الظهر
كان يزوره رجال من المنطقة وييقون أحيانا للعشاء
معه . وعندما شفيت قدمه تماما أخذ يركب جواده
باستمرار .

وخلال هذا الوقت ، حتى أدركت لم ترسل اليه
الا نادرا . وكل معلوماتي عنه كانت محدودة بلقاطات
عابرة حول المنزل ، وأحيانا كان ينظر الى شيء من
البرود ، وأحيانا كان ينحني ويبتسم . وكانت تغيرات

سلوكه لم تضايقنى ، لأننى رأيت أن ليس لى ما أفعله
إزاء أسبايها .

وفى يوم بعد العشاء جاءت رسالة بأن نذهب أنا
وأديل الى الطابق العلوى . وصعدنا ، مع تساؤل أديل
إذا كان الصندوق الصغير الذى وعدنا به قد أحضره
أخيرا . ولم يخب ظنها . كان موضوعا على مائدة غرفة
الطعام . فركضت تجاهه صارخة :

— صندوق هداياى !

فقال مستر روتشستر بصوت عميق فيه نبرة
استهزاء :

— أجل ، ها هو الصندوق . خذيه واجلسى به
هناك بدون صوت ، هل تفهمين ؟
كانت أديل قد استولت على كنزها . ونهض
السيد من مقعده وهو يقول :

— هل الآنسة جين هنا ؟ تعالى واجلسى هنا .
وسحب كرسيها بالقرب من كرسيه واستمر
قائلا :

- اننى لست مفرما بحديث الأطفال • لا تسحبى
هذا الكرسي الى الخلف أبعد من ذلك • اجلسى بالضبط
حيث وضعته • • أقصد من فضلك • • اننى أنسى هذه
الآداب • • ولا اهتم كثيرا بالسيدات العجائز ذات
العقلیات البسيطة • ومع ذلك يجب أن ادعو مدبرة
منزلى على ما اعتقد •

وقرع الجرس لمسز فيرفاكس ، وطلب منها أن
تتكلم مع أديل • كان مستر روتشستر وهو جالس على
كرسيه لا يبدو بمظهر القاسى وكان أقل جهامة بكثير
مما كنت أعتقد • • وكانت على شفثيه ابتسامة وكانت
عيناه لامعتين ربما من شرب النبيذ •

كان يتطلع الى المدفأة فترة من الوقت وكنت أتطلع
اليه فى هذه الفترة ، عندما التفت فجأة واصطاد عيني
مثبتة على وجهه ، فقال :

- انك تتفحصينى • هل تعتقدين بأننى حسن
المنظر ؟

فانزلج الجواب من لسانى بطريقة ما قبل أن
أتحقق منه :

- كلا يا سيدى .

فقال :

- آه ! بالتأكيد هناك شيء ما غير عادى عنك !
لك مظهر راهبة صغيرة ، هادئة ، بسيطة ، جادة ، ومع
ذلك عندما يسألك أحد سؤالاً ، فلك اجابة حادة
خاضرة . ماذا تقصدين بذلك .

- سيدى ، اننى أتكلم بحرية شديدة . أرجو
المعذرة . كان يجب أن اجيب بأن ليس جميع الأذواق
متشابهة ، فالمظهر ليس مهماً ، أو شيء من هذا القبيل .

- كان لا يجب أن تجيبى هكذا . المظهر ليس
مهما ، حقاً ! استمرى ! هل لى أن اسأل ما هو العيب
الذى تحدثيه فى ؟

- مستر روتشستر ، لقد أخطأت .

- حسن ، ستتحملين وزر ذلك . انتقدينى .
هل جبينى لا يرضيك ؟ .. والآن ، هل أنا أحمق ؟
- بعيداً عن هذا يا سيدى . ربما تعتقد أنى

وقحة اذا استفسرت بالمقابل اذا كنت رجلا ذا قلب
رحيم ؟

- اجابة حادة اخرى ! كلا يا فتاتى ، لست
كذلك ... هذا بصفة عامة : ولكنى ذو ضمير . كان
لدى قلب رقيق عندما كنت صغيرا . لكن الحياة
مرستنى فأنا الآن قاس . . فيما عدا ، ربما ، مكان أو
اثنين صغيرين . هل تقولين بأن هناك أملا فى ضياع
عذه القسوة ؟

ولم أدر بأى اجابة أقول . .

- تبدين متحيرة جدا يا مس اير . ورغم انك
لست جميلة أكثر من كونى حسن المظهر ، فتعبير
الحيرة يناسبك . علاوة على أنه شئ مريح أن يبعد عينيك
المنقبتين بعيدا عن وجهى . يا فتاتى ، اننى أشعر بحب
الكلام الليلة ، لهذا ارسلت فى طلبك . سيرضىنى
الآن أن أعرف عنك أكثر . . . لذا ، تكلمى .

جلست ولم أقل شيئا . فاحنى رأسه وتطلع الى
وجهى وقال :

- انك صامئة يا مس اير • آه ! هل تضايقت •
مس اير ، أرجو المَعذرة • لقد عبرت عن نفسى بطريقة
غبية • أود أن تكون لديك الطيبة لتتحدثنى معى قليلا •

- اننى راغبة فى أن أسرى عنك ، اذا استطعت
يا سيدى ، ولكن كيف لى أن أعرف الموضوع الذى
سيهمك ؟ اسألنى أسئلة وسأفعل ما فى وسعى للإجابة
عليها •

- اذن ، أول كل شىء ، هل توافقين بأن لى
الحق فى أن أكون أمرا بعض الشىء ، حيث أنى فى
سن أبيك ، ولدى خبرة واسعة بالحياة ؟

- لا أعتقد يا سيدى ، بأن لك الحق فى أن
تأمرنى لهذا السبب ، فطلبك بناء على هذه الميزة يعتمد
على استخدامك لوقتك •

- هذا لن يناسب حالتى ، حيث أننى أسأت
استخدامه • ولكن هل لازلت توافقين لتلقى أوامرى
من وقت لآخر دون أن تتضايقى من الصوت الأمر ؟

فابتسمت ، فقال :

- الابتسامة شيء جميل جدا ، لكن تكلمى
أيضا .

- كنت أفكر يا سيدى ، فى أن القليلين جدا
من يزعجون انفسهم ليستفسروا عما اذا كانوا يؤذون
احاسيس هؤلاء الذين يقومون بخدمتهم ..

- آه ! لقد نسيت ! انى ادفع لخدماتك !
حسن ، لهذا السبب ، هل تسمحين لى بأن أكون أمرا
بعض الشيء ؟

- كلا يا سيدى ، ليس لهذا السبب .. بل
لأنك تهتم بأحاسيس هؤلاء الذين تستخدمهم .. بهذا
أوافق عن طيب خاطر !

- أعطينى يدك لأسلم عليك على اجابتك هذه .
فلا يوجد ثلاثة من ثلاثة آلاف مربية تلميذات مدارس
يجبن كما أجبت أنت . انا لا أقصد أن أمدحك :
فاذا كنت مختلفة عن الأخريات ، فليست صاحبة
الفضل فى ذلك ، بل الطبيعة هى صاحبة الفضل الأول .

وأنا لا أعرفك جيدا • فقد تكون لديك أخطاء لا تحتمل
مقابل حسناتك •

فقلت في نفسي :

- وربما أنت كذلك •

والتقت عيناي بعينيه عندما جالت الفكرة في
خاطري • وبدأ يقرأ الكتاب ، فقال :

- انك على صواب • ان لي كثيرا من الاخطاء •
وماضي ليس طاهر الذيل • لقد وجهت الاتجاه الخطأ
عندما كنت في الحادية والعشرين ، ولم أعد الى الطريق
المستقيم منذ ذلك الحين •• اني احسبك لما تتمتعين
به من سلام مع عقلك ، ونظافة ضمير ، وذاكرة
صافية •

- لم يفت الوقت للاصلاح يا سيدى •

- وما فائدة التفكير فيه ؟ طالما أن السعادة
محرومة على ، فلي الحق في انتزاع المتعة من الحياة !
- سيكون مذاقها مرا يا سيدى •

- ألم تضحكين أبدا يا مس اير ؟ لا تزعجى نفسك بالاجابة ... اننى اراك تضحكين نادرا ، ومع ذلك يمكنك أن تكونى مرحة بشكل طبيعى . مازال نظام لوود باقيا معك ... تتحكمين فى ملامحك ، وتخشين فى حضور رجل أن تبتسمى بمرح أو تتكلمى بحرية مطلقة أو تتحركى بسرعة . ومع ذلك اعتقد انك تتعلمين أن تكونى طبيعية معى . ارى أحيانا نظرة طائر فضولى من خلف قضبان القفص المغلق هل ستذهبين الآن ؟

- لقد دقت الساعة التاسعة يا سيدى .

- لا تقلقى ، انتظرى قليلا . فاديل ليست مستعدة للذهاب للنوم بعد . كنت أراقبها . فمن عشر دقائق تقريبا أخرجت من صندوقها الصغير رداء حريريا وردى اللون والفرج يضى وجهها ، واندفعت خارجة لتقيسه ، وستأتى حالا ، انها تشبه أمها بالضبط .

وبعد لحظات سمعنا أقدام أديل الصغيرة عابرة الصالة ، ودخلت ترقص وصرخت باللغة الفرنسية :

• - اليس ثوبى جميلا •• وحذائى وجواربى •

فنظر مستر روتشستر اليها بسخرية وقال :

• - سأشرح قصتها فى يوم ما • تصبحين على

خير •• !

الفصل السادس عشر

الحريق !

وبالفعل شرح مستر روتشستر قصة أديل فى
أحدى المناسبات . ففى أحد الأيام كنت معها بالحديقة
.. وبينما كانت تلعب مع الكلب بيلوت ، أخبرنى أنها
كانت ابنة راقصة فرنسية أحبها ذات يوم ، لكنها
خدعته وهربت مع موسيقى ، فعطف على الطفلة التى
تركها وراءها .

بدأت لى الثقة التى أبدأها لى علامة احترام ،
وقبلتها على هذا النحو . ولم يتغير سلوكه نحوى لعدة
أسابيع . وعندما كان يقابلنى بشكل غير متوقع كان

يبدو عليه أنه مسرور باللقاء . ودائما ما يكون لديه كلمة أو مهتسامة لي . . . وعندما طلبني رسميا للقاءه ، شرفني بترحاب حار . ولم أتكلم في الحقيقة الا قليلا جدا : ولكني استمتعت بمحادثته وبمعرفته بالعالم .

وسلوكة السهل ومودته جعلتني أحبه وشعرت في بعض الاوقات وكأنه قريب لي أكثر من كونه مستخدمي . ومع ذلك كان لا يزال آمرا أحيانا ، ولم يكن يقلقني ذلك : اذ رأيت أن هذه هي طريقته . وأصبحت سعيدة جدا بهذا الاهتمام الجديد في حياتي ، حتى اني لم أعد أتمنى وجود أقارب وتحسنت صحتي .

وهل كان مستر روتشستر قبيحا في عيني الآن ؟ كلا ، فالشعور بالامتنان جعل وجهه أكثر شيء أحب أن أراه ، وكان حضوره في الغرفة مبهجا أكثر من أي نار مدفأة . . . مازلت أتعرف على عيوبه ، لكن بدا لي أن النظرة الغاضبة التي ترسم على وجهه أحيانا كانت كتذكّر فعل خاطيء أصابه في الماضي ، وكنت آسفة له .

كنت أفكر فى كل هذا فى احدى الأمسيات وأنا
استعد للنوم • واستلقيت ولكنى لم أستطع النوم •
كنت أقلب فى رأسى الحقيقة التى أخبرنى بها أنه يكره
ثورنفيلد • وحسب ما قالته مسز فيرفاكس فهو من
البادر أن يبقى أكثر من أسبوعين فى كل مرة •• ومع
ذلك ففى هذه المرةبقى أكثر من شهرين • والمنزل
يبدو خاويا بدونه •

ولم أدر ان كنت قد نمت أم لا بعد هذه الأفكار ،
الا أننى تحركت فجأة على سماع همهمة خافتة ، غريبة
ومنخفضة بدت فوقى تماما •• فجلست فى السرير ،
أتصنت • فاخفتى الصوت •

وحاولت النوم مرة أخرى ، لكن قلبى دق بشكل
قلق • ودقت الساعة البعيدة فى الصالة السفلية
الثانية صباحا • وبدأ عندئذ أن باب حجرتى قد تلمسه
أحد ، كأن أصابع مرت فوق الخشب لتتحسس الطريق
على طول الممر المظلم فى الخارج • فقلت :

— من هناك ؟

ولم يجب أحد وأصبحت باردة من شدة الخوف .
وبسرعة تذكرت ربما يكون بيلوت الذى عندما
يترك باب المطبخ مفتوحا مصادفة ، يتخذ طريقه أحيانا
الى غرفة مستر روتشستر . هداثنى الفكرة قليلا
وبدأت أشعر بالنعاس .

وكان حلما يقترب عندما سمعت ضحكة منخفضة
عميقة شريرة . ضحكة روح ضالة وبدت وكأنها آتية
من ثقب الباب . وتكرر الصوت . وكانت فكرتى الأولى
أن أنهض وأغلق الباب بإحكام ، والثانية أن أصبح :
« من هناك ؟ » .

كان هناك شئ يثن . وصوت وقع أقدام صاعدة
من الممر الى سلم الطابق الثالث . كان قد تم مؤخرا
صنع باب لغلاق مدخل هذا السلم ، فسمعته يفتح
ثم يقفل .

هل كانت هى جريس بوول ؟ كان من المستحيل
حاليا أن أبقي وحدى . لابد أن أذهب الى مسز فيرفاكس
فارتديت ملابسى وفتحت الباب بيد مرتعشة . ولدهشتى

كانت توجد شمعة فى الخارج ، ولدهشتى أكثر ملاحظتى
أن الهواء كان ثقيلًا تمامًا وكأنه مملوء بالدخان . ثم
وعيت على رائحة حريق قوية .

وتحرك شيء ما . أنه باب ترك مفتوحا . أنه باب
مستر روتشستر . واندفع الدخان منه فى سحابة .
لم أعد أفكر فى جريس بوول ولا الضحك . وفى لحظة
كنت فى غرفة النوم . كانت السنة اللهب تتحرك
حول السرير ، وكانت الستائر مشتعلة ومستر
روتشستر يرقد ممددا بلا حراك فى نوم عميق ،
فصرخت :

- انهض ! انهض ! وهززه لكنه تمت وتم قلب ،
اذ جعله الدخان شبه فاقد الوعي . ولا يمكن ضياع
دقيقة واحدة . واندفعت الى طسته وابريقه . ولحسن
الحظ كان كلاهما مملوءا بالماء ، فرفعتهما بصعوبة
وأغرقت السرير والنائم بالماء وطرت عائدة الى غرفتى
وأحضرت ابريقى وبعون الله نجحت فى اخماد اللهب .
واستيقظ مستر روتشستر أخيرا ، وسمعه

يستخدم الفاظاً نابية عندما وجد نفسه في بركة من
الماء . وسال :

— هل هناك فيضان ؟

فاجبت :

— كلا يا سيدى ، ولكن كان هناك حريق .
انهض ، فلقد تم اخمادها .

فسال :

— باسم كل ما هو مذهش ، هل هذه جين اير ؟
ماذا فعلت بى يا ساحرة ؟ هل خططت لاغراقى ؟

— شخص ما قد خطط شيئا . لا يمكنك اكتشاف
ذلك توا .

وأخذ يبحث عن ملابس جافة وأثناء ذلك أحضرت
الشمعة التى ما زالت موجودة فى الممر . وأخذها من
يدى ورفعها ، وفحص السرير فكان كله مسودا ومحترقا
وكانت الملاءات المبتلة والسجادة كلها تسبح فى الماء ،
ووصفت بايجاز ما قد حدث . وأنصت باهتمام مرتسما

على وجهه القلق أكثر من الاندهاش . ولم يتكلم عندما
أنهت كلامي ، فسألته :

- هل أنادي مسز فيرفاكس ؟

- مسز فيرفاكس ؟ كلا ، ما الذي ستنادينها من
أجله ؟ دعيها تنام في سلام !

- اذن ، سأحضر الخدم .

- لا داعي . هدئي من روعك .. خذي معطفي ،
اجلسي على كرسي وجنبي قدميك من البلل . سأقوم
بزيارة الطابق الثالث . سأخذ الشمعة . ابق حيث
أنت . لا تتحركي ولا تنادي على أحد

وذهب ، وراقبت الضوء وهو يختفي في الممر .
مضت مدة طويلة وتعبت من الانتظار . كان الطقس
باردا ، ولم أر جدوى للبقاء . ثم دخل أخيرا شاحبا
ومكتثبا ، وقال وهو يضع الشمعة :

- لقد اكتشفت كل شيء . انها كما توقعت .
- كيف يا سيدي ؟

ولم يجب ، ولكنه وقف ناظرا الى الأرض .
وبعد دقائق استفسر بصوت غريب :

- نسيت ، هل قلت انك رأيت شيئا عندما
فتحت الباب .

- كلا يا سيدى مجرد الشمعة بالخارج .

- ولكنك سمعت ضحكة غريبة ؟ لقد سمعت
هذه الضحكة من قبل ، أو شيء من هذا القبيل ، أليس
كذلك ؟

- أجل يا سيدى . توجد امرأة تخطط هنا
تدعى جريس بوول . . . انها تضحك بهذه الطريقة .
- انك لصائبة ، جريس بوول . . . حسن ،
سأتصرف فى الموضوع . لا تذكرى شيئا عنه ،
وسأجد حلا لهذه الحالة .

وأشار الى السرير . ثم اردف قائلا :

- والآن عودى الى غرفتك .

- تصبح على خير اذن يا سيدى .

- ماذا ؟ هل ستتركينى الآن !

- لقد قلت يمكننى أن أذهب يا سيدى

- ولكن ليس بدون بعض التشنكرات . لماذا
أنقذت حياتى . على الأقل صافحينى . وفرد يده .
وأعطيته يدى التى أخذها بيد واحدة فى البداية ، ثم
فى كلتا يديه ، وقال :

- انه لمدة لسرورى أن أكون مدينا لك بهذا
الدين الكبير . فلا أحتمل أن أدين به لى أحد آخر فى
العالم .

وتوقف وحملق فى ، وارتعشت الكلمات على
شفتيه ... ثم تحكم فى نفسه .

- لا يوجد دين يا سيدى .

- عرفت أنك ستسدين لى معروفا بطريقة ما .
لقد رأيت ذلك فى عينيك عندما قابلتك أول مرة .
فتعبرهما وابتسامتهما لم ...

ثم توقف ... ثم استمر فى تردد :

- لم تسكبا مثل هذه البهجة فى قلبى بدون
مقابل • منقذتى العزيزة الغالية ، تصبحين على خير !

وكان فى صوته طاقة غريبة وفى نظراته نار
غريبة ، فقلت قبل ان اذهب :

- انا سعيدة اننى كنت مستيقظة !

- ماذا ! .. ستذهبين ؟

- اننى اشعر بالبرد يا سيدى •

- تشعرين بالبرد ؟ اجل ، وتقفين فى بركة •
اذهبي اذن ، يا جين ، اذهبي !

ولكنه لا زال ممسكا بيدي ، ففكرت فى علو
قائلة :

- اعتقد اننى اسمع مسز فيرفاكس تتحرك
يا سيدى •

فأرخى أصابعه وذهبت •

وعدت الى سريري لكنى لم أفكر فى النوم أبدا .
فمضى كان به خليط من الفرح والقلق ، الحكمة تصارع
العاطفة وانفعالى يفوق كل شيء ، وقمت بمجرد أن
ظهر ضوء النهار ..

الفصل السابع عشر

جريس بوول

وددت ، وخشيت في نفس الوقت أن أرى مستر روتشستر في اليوم التالي لهذه الليلة القلقة . ومرت الصباح ، رغم ذلك ، كالمعتاد . ولم يحدث أى شيء يعكر من دراسة أديل . . . وسمعت بعد الافطار مباشرة الحلم وهن مشغولات بالقرب من غرفة مستر روتشستر وعندما مررت عليها فيما بعد رأيت كل شيء في أكمل ترتيب مرة أخرى ، ورأيت امرأة جالسة على كرسي بجانب السرير ، تخطط حلقات في سستانر جديدة . انها جريس بوول كانت تجلس هناك مشغولة بعملها بوجهها الجامد وملامحها العادية ، على الأقل ليست

لامرأة حاولت ارتكاب جريمة واكتشف أمرها .
وتطلعت الى عنكما حملقت فيها وقالت :

- صباح الخير يا آنسة !

قالتها بطريقة عادية ، بلا حركة وبلا تغير في لون
وجهها ودون اعطاء أية علامات احساس بالذنب أو الخوف
من أن أمرها قد انكشف ، ولذلك فقد قلت في
دخيلتي :

- سأختبرها بطريقة ما .

وقلت بصوت مسموع :

- صباح الخير يا جريس . هل حدث شيء هنا ؟
أعتقد اننى سمعت الخادومات كلهن يتحدثن سويا من
فترة قصيرة .

- كان سيدى يقرأ فى فراشه ليلة أمس ونام
والشمعة مضاءة فاشتعلت النار فى الستائر . ولحسن
الحظ استيقظ فى الوقت المناسب وأخمدها .

**فقلت بصوت خافت : « حاجة غريبة ! » ثم نظرت
اليها وقلت :**

- ألم يوقظ مستر روتشستر أى أحد ؟

فرفعت عينيها الى واخنت تتفحصنى بنىاية
ثم اجابت :

- كان الخدم يغطون فى النوم ، تعرفين يا آنسة ،
فلا يمكن أن يسمعو شيئا ! وغرفة مسز فيرفاكس
وغرفتك أقرب الغرف لغرفة السيد • ومسز فيرفاكس
نقول انها لم تسمع شيئا • فعندما يكبر الناس يغطون
فى نومهم •

وتوقفت ثم اضافت :

- ولكنك صغيرة يا آنسة وربما أخف نوما •
هل سمعت ضجة ؟

فقلت فى صوت منخفض :

- سمعت ، فى الاول اعتقدت أنه بيلوت ، لكن
بيلوت لا يستطيع الضحك ، وانى متأكدة اننى سمعت
ضحكا • • وكان ضحكا غريبا • •

كانت تمسك بالابرة بيد ثابتة ، ثم قالت بهتوء :

- من الصعب على السيد أن يضحك يا آنسة
وهو فى خطر • لابد أنك كنت تحلمين •

فاجبت :

– لم أكن أحلم .

فنظرت الى مرة اخرى واستفسرت :

– هل أخبرت السيد بأنك سمعت ضحكا ؟

– لم تأت الفرصة لأتكلّم معه هذا الصباح .

– ألم تفكرى فى فتح بابك وتنظرين ؟

فقلت :

– على العكس تماما ، فلقد أحكمت اغلاق الباب

– اذن ، ليس من عادتك أن تحكمين اغلاق بابك

كل ليلة ؟

جال بفكرى أنها لو اكتشفت أوشكت بأننى أعرف

جريمته ربما بدأت تلعب على ببعض حيلها الشريرة ،

وربما تجاؤل أن تعرف عاداتى ، فاجبت بعدة :

– سأهتم ، فى المستقبل ، باغلاق كل شىء قبل

أن أنام .

فاجابت :

— من الحكمة أن تفعل ذلك .

وأثناء الغداء لم أسمع ما قالته مسز فيرفاكس عن الحريق بالضبط ، فلقد كنت مشغولة في شحذ عقلي في شخصية جريس بوول الغامضة ، وخصوصا مركزها في ثورنفيلد ، والسبب في عدم القبض عليها أو على الأقل طردها من الخدمة . ولقد اعترف مستر روتشستر بجريمتها ، ولكنه جعلني أقسم بأن أحفظ السر . انه لشيء غريب أن يكون مثله ، الجريء المعتز بنفسه محكوماً بنفوذ واحدة من خدمه .

وانتظرت بفارغ الصبر للساعة التي يجب أن أرى مستر روتشستر فيها ذلك المساء ، فلدى أشياء كثيرة أقولها له . . أريد أن أقدم موضوع جريس بوول وأسمع ما يجيب عليه .

وظهرت أخيرا احدى الخدم ، ولكن لتقول ان الشاى جاهز في غرفة مسز فيرفاكس .

وقالت السيلة الطيبة عندما وصلت اليها

- لابد أنك فى حاجة الى الشىء . لقد أكلت
الشيء النزير على الغداء . أخشى أن تكونى متوعكة .
تبدين مريضة .
- أوه ! اننى بخير تماما .

فاضافت قائلة :

- لقد كسب مستر روتشستر يوما جميلا
لرحلته .

- رحلة ! هل خرج مستر روتشستر ؟

- أوه ، لقد قام بعد الافطار مباشرة . لقد
ذهب الى لياس . . لمنزل مستر اشتون ، الذى يقع على
بعد عشرة أميال من الجانب الآخر من ميلكوت . اعتقد
انه يوجد حفل هناك .

- هل تتوقعين عودته الليلة ؟

- كلا ، اعتقد انه قد يبقى اسبوعا او اكثر . .

ان مستر روتشستر مسل جدا ومليء بالحسوية وخفة
الظل فى الحياة الاجتماعية ، حتى اننى اعتقد بانه
محبوب فى كل مكان . والسيدات مفرمات به .

- هل توجد سيدات فى لياس ؟

- هناك مسز اشتون وبناتها ٠٠ بنات شيك
جدا فى الحقيقة ، وهناك أيضا الآسات مثل بلانش
ومارى انجرام وهما من أجمل الفتيات • عندما كانت
بلانش موجودة فى احتفال الكريسماس كانت تعتبر
أجمل الموجودات •

- كيف كان شكلها ؟

- قوام فارع ، ذات رقبة طويلة رشيقة ، ملامح
نبيلة ، عيون واسعة سوداء تلمع مثل الجواهر ورأس
جميل يتوجه شعر أسود ملفوف •

- أثارت الاعجاب بالطبع ؟

- أجل ، وليس لجمالها فقط ، ولكن لانجازاتها •
فهى تقضى ، هى ومستر روتشستر غنيا سويا •

- لم أكن أعرف أن مستر روتشستر يستطيع
الغناء •

- أوه ، ان له صوتا عذبا وحسا موسيقا ممتازا
ولقد شكر جدا فى غناء مس انجرام •

— وهذه الفتاة الجميلة البارعة لم تتزوج بعد ؟

— أعتقد انها لا هى ولا أختها لديها ثروة كبيرة .

وعندما عدت وحدى مرة أخرى ، استرجعت المعلومات التى حصلت عليها .

ونقبت فى قلبى لأتمحص أفكاره وأحاسيسه ،
وحاولت أن استرجعهما الى المنطق والادراك السليم .
فخاطبت نفسى بشدة :

— يالك من حمقاء يا جين اير ، لم تتنسى
مطلقا نفس الحياة . أنت مفضلة عند مستر روتشستر؟
انت لك أهمية عنده بأى شكل ؟ هيا اذهبي ! ان غباءك
يثير اشمزازى . ان الاهتمام الذى يوليه المستخدم
لامرأة تعمل عنده لا يعنى شيئا بالنسبة له . انه من
الجنون أن تسمحى لحب مقلص أن يشتعل داخلك .

اسمعى ، اذن ، يا جين اير ، لعقابك . من الغد ،
ضعى المرأة أمامك وارسمى نفسك باخلاص ، بدون أن
تخفى أى عيب . واكتبى تحتها :
« صورة مربية فقيرة قبيحة » .

وبعد ذلك ، ارسى أجمل وجه يمكن أن تتخيليه
بأنعم الألوان طبقا للوصف الذى قدمته مسز فيرفاكس
واطلقى عليه « بلانش فتاة بارعة ذات محتد » .

وعندما تتخيلين ، فى المستقبل ، أن مستر
روتشستر يفكر فيك ، اخرجى الصورتين وقارنى
بينهما .

وفعلت ذلك ، وبعد فترة كان هناك سبب لأعنى
نفسى على النظام الذى أجبرت أحاسيسى عليه .

الفصل الثامن عشر

حفلة منزلية

مضى على مستر روتشستر أكثر من أسبوعين
عندما استلمت مسز فيرفاكس رسالة منه .

وبينما كانت تفتح المظروف لتقرأ تشاغلته
بشرب قهوتي . . واهتزت يدي وسكبت نصف القهوة
من فنجانى الى طبقى .

وقالت :

- حسن ، أفكر أحيانا بأننا فى هملوء تام ، لكن
الآن سننشغل بما فيه الكفاية لفترة من الوقت . سيكون
مستر روتشستر هنا فى غضون ثلاثة أيام وسىأتى

معه كثير من الناس الحلوة . انه يبعث بأوامره لاعداد المنزل بأكمله .

أنهت مسز فيرفاكس افطارها وأسرعت لتبدأ المهام وكانت الأيام الثلاثة التالية أياما نشطة . لم أر مطلقا مثل هذا التنظيف والغسيل والتلميع من السجادة والزجاج والصور المعلقة . وأخذت أديل تجرى بحوية زائدة في خضم ذلك ترقص من أول البيت الى آخره ، وتنقب في ملابسها . . . ولقد أعفيتها من واجباتها الدراسية . وطلبت مسز فيرفاكس مساعدتي وأصبحت طول الوقت في غرفة الخزين أساعدها وأساعد الطباخ ولم يكن لدى وقت للأفكار السوداء ، بل كنت نشطة ومرحة مثل الجميع ، الا عندما تصادف وأرى باب سلم الطابق الثالث مفتوحا وجريس بوول نازلة منه ، كماداتها ، لتأكل غداءها بالمطبخ . . . فكنت أفقد ابتهاجي وكان أغرب شيء أنه لم يكن يبدو على أحد بالمنزل، سوى . ملاحظة عاداتها أو التعجب لها . ولم يناقش أحد وضعها أو وظيفتها . وسمعت بالصدفة ذات مرة جزءا من محادثة في الموضوع بين اثنين من الخدم :

- انها تحصل على أجر طيب ، على ما أظن ؟
- أجل ، يا ليتنى مثلها . اننى لا أشكو من أجرى
ولكنه لا يصل الى خمس المبلغ الذى تقبضه مسز بوول
- انها مجتهدة فى عملها ، على ما أعتقد .
- آه ، انها تفهم ما يجب أن عمله . لا أحد
يستطيع القيام بعملها .

- حقا ! ترى هل السيد ..
فى تلك اللحظة لاحظتني احداها وأعطت إشارة
لصاحبتها بأن تكون حذرة .

وسمعت الأخرى تقول هامة :

- ألا تعرف ؟

فهزت الأولى رأسها وسكتت كلتاها ..

ومرت الأيام الثلاثة وبعد ظهر اليوم الرابع ارتدت
مسز فيرفاكس ثوبا حريريا أسود جميلا وتحلت
بساعتها الذهبية حيث ان طبيعة عملها استقبال
القوم ، وتقود السيدات الى غرفهن ، وهكذا .

وأخيرا سمعنا عجل العربات وجاء أربعة ركاب
مسرعين عبر الطريق المحفوف بالأشجار ، يتبعهم
عربتان .. وكان اثنان من الركاب من الشباب والثالث
مستر روتشستر . أما الراكب الرابع الذى يركب
بجواره ، فكان امرأة !

**وقالت مسز فيرفاكس وهى تسرع الى مكانها
بالتابق السفلى :**

— مس انجرام !

وسمعنا حركة مرحة فى الصالة . أصوات
رجال عميقة والأنغام الفضية للسيدات انلمجت سويا
وكان صوت سيد ثورنفلد مول واضحا فوق الجميع
رغم عدم ارتفاعه مرحبا بالضيوف .

أخذت أديل تتوسل للنزول ووجدت صعوبة
فى أن أقنعها بأنها لا يجب أن تنزل الا اذا طلب منها
ذلك .. وأخذت أقص عليها قصصا طوال فمسا كان
بامكانها الانصات ، ثم ، كتغيير ، أخذتها خارجا لتتطلع
من سلم الخدم وتراقب الخدم . ومن يقمن بحمل
أطباق الطعام .

وعندما تقدم المساء انبعثت الموسيقى من غرفة
الاستقبال متبوعة بمحادثة • فأنصت طويلا • وفجأة
اكتشفت بأننى أحاول أن أتصيد صوت سيدى وأفهم
ما يقول ••

وفى اليوم التالى قالت لى مسز فيرفاكس :

- حدث وأبديت ملاحظة لمستر روتشستر عن
أديل وكم هى تواقه فى أن تتعرف بالسيدات ، فقال :
« أوه ، دعيها تأتى الى غرفة الاستقبال بعد العشاء
وأطلبى من مس اير أن تأتى معها » •

- لقد قال ذلك من منطلق التأدب • لا داعى أن
أذهب ، بالتأكيد •

- لقد أخبرته بأنك لم تعتادى على المجتمع ، وقد
لا تحبين الظهور فى مثل هذه الحفلات المرحه ،
فأجاب بطريقته السريعة : « كلام فارغ ! اذا اعترضت
قولى لها انها رغبتى الشخصية ، واذا أصرت أخبريها
بأننى سأتى لأحضرها » •

- لن أسبب له هذا العناء . هل ستكونين هناك
يا مسز فيرفاكس ؟

- كلا . لقد رجوته أن يعذرني الليلة . سأقول
لك كيف تتجنبين حرج الدخول بشكل رسمي . عليك
أن تذهبي الى غرفة الاستقبال وهي خاوية ، قبل أن
تغادر السيدات مائدة العشاء . اختاري جلستك في أى
ركن هادئ . ولا داعى أن تبقى طويلا بعد قنوم الرجال
دعى مستر روتشستر يرى انك موجودة ، ثم تسلى
خارجة ، ولن يلاحظك أحد .

الفصل التاسع عشر

فى غرفة الاستقبال

شعرت بأننى عصبية نوعا ما ، عندما اقتربت الساعة التى على أن أظهر فيها فى غرفة الاستقبال . وكانت أديل فى حالة فرح طول اليوم ، ولكن عندما بدأ وقت ارتداء ملابسها أصبحت جادة ، وأنا نفسى ارتديت بسرعة أفضل ما لدى « ثوبا رماديا فضيا تم شراؤه لزفاف مس كميل ، ولم يلبس حتى الآن » . وفردت شعرى .

وحدنا الغرفة خاوية . كانت هناك نار كبيرة تشتعل بالمدفأة وتظهر الشموع بين الزهور الجميلة على

الموائد • واحضرت اديل كرسيها صغيرا بجانبى
وبعد فترة لمست دكبتى قائلة :

- هل لى أن آخذ واحدة من هذه الزهور
الجميلة ... لأضعها حلية لثوبى !

- انك تفكرين كثيرا فى ثوبك ، يا اديل ، ومع
ذلك يمكنك أخذ واحدة !

واخذت وردة وثبتتها فى حزامها • فتنهدت
بارتياح واشاحت بوجهها جانبا لتخفى ابتسامة •

وبدأنا نسمع صوتا رقيقا لقيامهم من على المائدة ،
وسحببت الستارة الفاصلة بين غرفة الاستقبال وغرفة
الطعام • وبدأت بعض السيدات تدخلن • فنهدست
واتحدثت لهن • واحدة أو اثنتين احين رأسيهما فى
المقابل وتطلعت الأخريات فقط الى ..

وانتشرن فى الغرفة مثل الطيور ، ينظرن الى
الكتب والزهور ، ويتحدثن فى صوت منخفض ولكنه
واضح ، وفحصتهن بهدوء معطية معظم اهتمامى لعائلة
انجرام .. كانت الأم « ليدى انجرام » امرأة رائعة

الجمال ولكنها تبدو مثكبرة بشكل لا يطاق .. ولها
عينان ناريتان حادثان تذكراني بمسز ريد . أما ابنتاها
فكانتا فارعتي القوام . وأخذت أنظر باهتمام خاص ،
بالطبع ، للابنة الكبرى .. كم كانت تشبه وصف مسز
فيرفاكس والصورة التي كونها لها خيالي ؟

كانت جميلة ، ولكن وجهها كان مثل وجه أمها
مع فارق السن .. كانت تتكلم مع مسز دنت ، سيدة
لطيفة ، بطريقة تظهر مهارتها الشخصية ولكن تظهر
الأخرى بمظهر الغباء .

وفي هذه الأثناء ، تقدمت أديل وحيث الموجودات
باللغة الفرنسية . ونظرت مس بلانش انجرام اليها
بترفع . وقبلتها مسز دنت بعطف ، أما ايسى ولويزا
اشتون فأجلستاها بينهما ، وأخذتا تدلانها على حسب
ما تهوى .

وأخيرا حضرت القهوة ونودي على الرجال ،
وجلست في ركن منعزل .. وستارة النافذة تكاد أن
تخفيني .

وجاء مستر روتشستر فى النهاية . لم أكن أنظر نحوه لكنى رأيتة يدخل . وحاولت أن أحافظ على انتباهى . وتذكرت آخر مرة رأيتة فيها ، وكم كنت ملاصقة له وقريبة منه فى تلك اللحظة . ولكن الآن كم نحن بعيدين ! . لقد أخذ مقعدا فى الجانب الآخر من الغرفة بدون أن يتطلع لى .

وانجذبت عيناى لوجهه ، ضد ارادتى . واخلفت أقارن بينه وبين ضيوفه . لم يكن جميلا ، لكن وجهه الشاحب ، بالجبين الثقيل المربع ، والحاجبين الاسودين العريضين والعينين الغائرتين والغم الحازم . . . كله تصميم وحيوية وإرادة . . كان جل اهتمامى . . ولم يكن فى نيتى أن أحبه ، لكن أول مرة أراه ثانية ، قهرتنى أحاسيسى . لقد جعلنى أحبه دون أن يتطلع الى .

رأيت مستر روتشستر يبتسم . كان يتكلم ، فى هذه اللحظة ، مع لويزا وايمى اشتون ورأيت باندهاش أنهما تستقبلان نظرتة بهدوء ، ولكنى كنت سعيدة ، إذ فكرت :

- انه ليس على شاكلتهما وأومن أنه على شاكلتي .
ورغم أن المركز والثروة تفرق بيننا بشكل واسع ،
فلدى شيء فى عقلى وفى قلبى مشترك معه .. لدى
أحاسيس معينة يفهما هو .. !

تم تناول القهوة . وأصبحت السيدات مرحات
منذ دخول الرجال . وأخذ الكبار منهم يتجادلون فى
السياسة بينما زوجاتهم ينصتن . وكان الكل منشغلا
ماعدا بلاش انجرام ، التى وقفت وحيدة عند المائدة ،
وتحركت تجاه مستر روتشستر .

وقالت مشيرة الى اديل :

- لماذا ، مستر روتشستر ، تحملت مسئولية
شيء صغير كهذه .. من اين أتيت بها ؟ ..

- لقد تركوها لى !

- كان يجب أن تبعت بها للمدرسة .

- لا أقدر على المصاريف . فالمدارس غالية .

- لماذا ، أظن أن عندك مربية لها . لقد رأيت

واحدة معها الآن .. هل ذهبت ؟ أوه كلا ! ها هي

ما زالت ، خلف ستارة النافذة • انها تكلفك طبعاً •
أعتقد انها نفس الشيء حيث انك تقوم بالنفقة عليهما •
- اننى لم أبحث الموضوع •

- انتم ايها الرجال لا تفكرون فى التوفير مطلقاً •
يجب أن تسمع مامى وهى تتكلم عن موضوع المربيات •
كان لدى أنا ومارى نصف دسنة على ما أعتقد • كرهنا
بعضهن وسخرن من البعض الآخر • وكن جميعهن
مزعجات ... اليس كذلك ، يا مامى ؟!

- لا تذكرى المربيات يا عزيزتى • فهذه الكلمة
تجعلنى عصبية • لقد عانيت الكثير من غبائهن • أشكر
السماء أننى تخلصت منهن •

وهنا انحنيت مسر دنت عليها وهمست بشيء فى
اذنها ، مذكرة الليدى ، على ما أعتقد أن واحدة من المهنة
المكروهة حاضرة •

فكالت والدة بلانش :

- دعيتها تسمع ! •

ثم قالت بصوت منخفض ، ولكن بشكل يكفى
لسماعه :

- لقد لاحظتها ، وارى فى وجهها كل العيوب التى
فى شاكلتها .

- اوه ، يا ماما ! لا تضجرينا بالوصف . فلنغير
الموضوع . كيف حال صـوتك الليلة يا مستر
روتشستر ؟

- تحت أمرك ، اذا رغبت .
فجلست مسرعا انجرام على البيانو بكبرياء وقالت :
- مستر روتشستر ، غن الآن ، وسأعزف لك .
- السمع والطاعة !

فكرت فى الانسحاب حيث الظرف ملائم ، لكن
الصوت الذى بدأ يشدو جنب انتباهى . كان صوتا
جميلا قويا مملوءا بالأحاسيس .. وانتظرت حتى
خفتت النغمة الأخيرة تماما، ثم تسللت خارجة من الباب
الجانبى . وعند عبورى الصالة لاحظت حذاءى مفكوكا ،
فتوقفت لأربطه .

سمعت باب غرفة الاستقبال يفتح ويخرج منها
أحد السادة ، فنهضت مسرعة لأجد نفسى واقفه وجها
لوجه معه . كان مستر روتشستر ، فقال :
- كيف حالك ؟

- اننى بخير يا سيدى !

- لماذا لم تأت وتحدثنى معى فى الغرفة ؟
وفكرت فى أن أوجه له نفس السؤال ، ولكن
لا يصح لى أن أتكلم بهذه الحرية ، فاجبت :

- لم أرغب فى ازعاجك حيث كنت مشغولا .

- ماذا كنت تفعلين أثناء غيابى ؟

- لا شئ بالتحديد التدريس لأدبل كالمعتاد .

- وتصبحين أكثر شحوبا على شحوبك . ما هو

الموضوع ؟

- لا شئ على الاطلاق ، يا سيدى .

- هل أصيبت بالبرد تلك الليلة عندما كنت

تستخدمين الماء لاطفاء الحريق . . ؟

— كلا .

— ارجعى الى غرفة الاستقبال ، انك تغادرين مبكرة

جدا .

— اننى متعبة يا سيدى !

فنظر الى بركة ثم قال :

— وعير سعيدة . ما السبب ؟ أخبرينى .

— لا شئ . . . لا شئ ، يا سيدى ، اننى سعيدة .

— ولكنك . . . سعيدة لدرجة انك بعد كلمات

قليلة اخرى ستملا الدموع عينيك . فى الحقيقة انها

موجودة الآن . اذا كان لدى وقت لتحقق من معنى

ذلك كله . . حسن ، ساعدك الليلة ، ولكن طوال

وجود زوارى هنا سأتوقع حضورك فى غرفة الاستقبال

كل ليلة . اذهبي الآن وابعثنى بالمريضة لأدبل . .

تصبحين على خير يا . .

وتوقف وعض على شفته وتركنى مسرعا . . !

الفصل العشرون

قراءة البخت

كانت تلك أياما مريحة فى ثورنفيلد هول وأياما نشطة أيضا : كم كانت مختلفة عن الشهور الثلاثة الأولى من السكون عديم الأحداث الذى مرت به بين جدرانها ! كانت الحياة تدب فى كل مكان ، والحركة دائبة طوال اليوم . وكانت غرف الاستقبال هادئة فقط عندما ينادى جو الربيع الجميل الضيوف فيخرجون الى الحديقة .

حتى عندما سقط المطر لبضعة أيام ، فلم تسقط أى ظلال على سرورهم ، واستمروا ينعمون بوقتهم بشتى أنواع المسليات .

وفى أحد الأيام طلب مستر روتشستر للذهاب
الى ميلكوت فى بعض الأعمال . وكان يوما مبتلا ، ولم
يبد على الضيوف معرفة كيف يشغلون أنفسهم ، لانه
اذا غاب حتى لساعة واحدة ، بدا عليهم الضياع
والاحساس بفقدان مرحهم ..

وبدأت بعض من السيدات الشابات والرجال فى
الحديث بشكل متراخ كسول . وقبح الكبار مع ورق
اللعب فى هدوء . وثبطت بلائش انجرام كل الجهود
لجذبها فى المشاركة فى الحديث ، ولعبت أولا على أصابع
البيانو بعض الأنغام بتكاسل ، ثم أحضرت رواية من
المكتبة وغاصت فى أحد الكراسى الوثيرة لقضاء الوقت
فى القراءة .

وكان وقت ارتداء الملابس للعشاء . عندما صاحت
أديل ، الراكعة بجوارى على مقعد نافذة غرفة الاستقبال ،
باللغة الفرنسية قائلة :

— ها هو مستر روتشستر .. لقد عاد !

فالتفت واندفعت مس انجرام للأمام لأنه فى نفس

الوقت أمكن سماع صوت العجلات وضجيج الجياد .
وقالت مس انجرام :

— لماذا يعود بالبيت فى عربة ؟ لقد غادر على ظهر
جواد . اليس كذلك ؟

وعندما تفوهت بذلك ترجل سيد من العربة فى
ملابس السفر ، وكان غريبا . فقالت مس انجرام
متعجبة :

— ياله من ازعاج !

ثم قالت ، مخاطبة أديل :

— وانت ، يا قرودة يامتعبة ، من أصعدك الى
النافذة لاعطاء معلومة زائفة ؟

وأعطتنى نظرة غاضبة وكأننى الملوثة .

ودارت محادثة فى الصالة دخل بعدها الضيف
الجديد . فانحنى لليدى انجرام على اعتبارها أكبر
الحاضرات ، وقال :

- يبدو أننى حضرت في وقت غير ملائم ، وصديقى
مستر روتشستر بعيد عن بيته ، ولكننى قطعت رحلة
طويلة ، واعتقد أننى سأكون جريئاً لأبقى هنا حتى
يعود .

وعلمت بعد ذلك أن اسمه ميسون وأنه عائد من
جزر الهند الغربية منذ وقت قريب ، حيث التقى بمستر
روتشستر . وكان سلوكه مؤدباً ونطقه غريباً بعض
الشيء . وله ملامح عادية . لكن عينه طوافة ، وأسلوب
غير مستقر وتنقصه الحيوية .

كنت أفكر في ذلك بعد العشاء ، عندما حدث
شيء غير متوقع . طلب مستر ميسون ، غير المعتاد على
الطقس البارد ، فحماً زيادة لوضعه في المدفأة ، ووقف
الخدام الذى أحضر الفحم بالقرب من مقعد مستر اشتون
وأمر له شيئاً . فاجابه هذا السيد قائلاً :

- قل لها إنها ستعرض نفسها للعقاب إذا لم
تذهب .

فتدخل الكولونيل دنت قائلا :

— كلا ... قف ! لا تدعها تذهب ، اشتون ربما

تسلي السيدات .

ثم اضاف بصوت مرتفع :

— سيداتي ، توجد امرأة عجوز في صالة الخدم ..

نطلب السماح لها بالدخول لتخبركن عن حظكن . هل
تحبون رؤيتها ؟

فصاحت ليدى انجرام :

— بالتأكيد يا كولونيل ، انك لن تشجع هذه

المخادعة ؟ اطردوها ، بأى شكل فى الحال !

فقال الخادم :

— لكنى لا أستطيع حثها على الرحيل يا سيدتى ،

فهى تقول انها لن تتحرك حتى يحصل على الاذن
بالدخول هنا .

فاستفسرت الانستان اشتون فى وقت واحد :

— ما هو شكلها ؟

- عجوز دميمة بشكل مروع ، سوداء كالبحم
تقريباً !

فصرخ أحد الشباب :

- انها ساحرة حقيقية ، دعونا نراها بالطبع

فقالت امه :

- يا ابني العزيز ، بماذا تفكر ؟

واضافت ليدي انجرام قائلة :

- لا يمكن أن أسمح بمثل هذا .

فانبرى صوت بلانش وهي تلف بمقعد البيانو

وتلفت قائلة :

- فى الحقيقة يا ماما يمكنك .. وستسمحين .

لدى فضول أن اسمع حظى . دعى المرأة لتدخل .

- بلانش يا حبيبتى ! اعتبرى ...

- أعرف . ولا بد ... أدخلها بسرعة !

وقف الحادم مترددا وقال :

— انها تبدو رثة فظة .

فردت مس انجرام :

— اذهب !

وذهب الرجل وعاد بعد دقيقة وقال :

— انها لا تريد أن تدخل الآن . انها تقول يجب

أن آخذها الى غرفة لوحدها . . ومن يرغب فى الحصول
على أى معلومات منها يذهب اليها كل بدوره . .

فبدأت ليلى انجرام تقول :

— أرايت الآن ، انها تحتال ، أنصحك يا عزيزتى

فاعترضتها ابنتها قائلة :

— ادخلوها الى المكتبة بالطبع .

وقال كولونيل دنت :

— اعتقد من الأفضل أن القى نظرة عليها قبل

أن تذهب أية سيده من السيدات .

وذهب الخادم وعاد مرة أخرى وانضاف قائلا وهو
يحاول بصعوبة منع نفسه من الابتسام :

— انها تقول يا سيدى انها لن تستقبل من
الرجال ولا من السيدات الا الصغار وغير المتزوجين .
فنهضت مس انجرام برزانة وقالت :
— سأذهب أنا أولا ..

فكانت صرخة امها الولهانة بها :

— أوه . يا روحى ! يا عقلى ! انتظرى ، فكرى
فيما تفعلين !

لكن بلانش خرجت من الغرفة بدون كلام .

تبع ذلك سكون . وهدت ليدى انجرام بائسة .
وأعلنت مس مارى بأنها لا تجرؤ على الذهاب . أما ايمى
ولويزا فضحكتا بعصبية وظهر عليهما الشوف بعض
الشيء .

ومرت الدقائق ببطء شديد . خمس عشرة

دقيقة ثم عدها قبل أن يفتح باب المكتبة مرة أخرى
وتعود لثامس انجرام .

هل ستضحك ؟ هل ستعتبرها فككة ؟ والتقت
جميع العيون بعينيها في شغف وفضول . وسارت هي
بجمود الى مقعدها وجلست عليه .

— حسن يا بلاش ؟

— ماذا قالت ؟

فاجابت مس انجرام :

— مهلا ، مهلا ، يا ناس يا طيبين . لا داعي للاثارة
الزائفة . لقد رأيت سيدة عجوز قالت لي ما تقوله
العرفات عادة ، وأرضيت خيالي ، هذا كل ما في الأمر !
واخذت كتابا واضطجعت في جلستها ورفضت
الحديث ولم تقلب الصفحة مطلقا لنصف ساعة ،
وامتقع وجهها وازداد استياؤها .

اثناء ذلك أعلنت ماري انجرام وايسى ولويزا
اشتون بأنهن لا يجرؤن على الذهاب بمفردهن ومع

ذلك يرغبن فى الذهاب • وبعده تبادل عديد من الرسائل
عن طريق الخادم أعطت الاذن لثلاثتهن بالذهاب سويا •
لم تكن زيارتهن هادئة كزيارة بلانش انجرام ••
سمعنا ضحكات عصبية وصرخات قصيرة من المكتبة ،
وبعد حوالى عشرين دقيقة اندفعن فى الغرفة راكضات
شبه خائفات •

وصرخن قائلات :

— انى متأكدة أن لها قوى غريبة ••• لقد أخبرتنا
بأشياء ••• انها تعرف كل شئ عنا • وجلسن مقطوعات
النفس على المقاعد المختلفة التى أسرع الرجال باحضارها
لهن

ومع مزيد من الاستفسارات ، أعلن أنها أخبرتهن
بأشياء قد قلنها وفعلنها فى طفولتهن ، ووصفت
ممتلكاتهن فى بيوتهن • بل وخمنت أفكارهن ، وهمست
فى أذن كل من هن باسم الشخص الذى تحبه فى
العالم •

وهنا توصل السادة الرجال لاعطائهم معلومات
أكثر عن النقطة الأخيرة ، ولكنهم حصلوا على نظرات
خجولة وضحكات فقط بدلا منها . وحاولت السيدات
الكبار تهدئة الصغيرات بينما انخرط أزواجهن في
الضحك .

وبينما كنت أراقب هذا المنظر ، سمعت صوتا
بجانبي . فالتفت لأرى الخادم ، الذي قال :

— من فضلك يا آنسة ، تعلن السيدة العجوز
عن وجود فتاة غير متزوجة أخرى في الغرفة ، وأقسمت
بأنها لن تذهب حتى ترى الجميع . ماذا أقول لها ؟

فاجبت :

— أوه ، سأذهب بالتأكيد .

كنت سعيدة بالفرصة لارضاء فضولي . وتسلمت
خارج الغرفة دون أن يلحظني أحد ، وأغلق الباب من
خلفي بهدوء .

الفصل الحادى والعشرون

العرافة

بليت المكتبة هادئة تماما عندما دخلتها ، وكانت الساحرة - اذا كانت حقا كذلك - نجلس على كرسى وثير بجانب المدفأة . كانت ترتدى ما يشبه المعطف الأحمر الفضفاض ملفوفا حولها ، وقبعة واسعة مربوطة الى اسفل بمنديل حول وجهها . وتبدو وكأنها تقرأ من كتاب أسود صغير ، وتتمتم بالكلمات لنفسها ، كما تفعل معظم النساء المعجائز أثناء القراءة .

وبينما أنا واقفة على السجادة أدفئ يدي ، أحسست بسكينة لم أحسها فى حياتى .. أغلقت المرأة

كتابها ونظرت الى يبطه . وكانت قبعتها تحجب جزءا
من وجهها ، ولكن كان بمكنى أن أرى أن لها وجهها
غريبا ، وأن لها شعرا غزيرا غير مرتب . والتقت
عينها بعيني بحمقة جسورة ومباشرة ، وقالت بصوت
خشن كمنظهرها :

- حسن وانت تريدان قراءة بختك ؟

- أنا لا أهتم به يا أمى ، يمكنك ارضاء نفسك .

لكننى يجب أن أحذرك فأنى لن أصدقك .

- انها نفس الاجابة التى توقعتها منك . لقد

سمعتها من خطواتك عند دخولك .

- ان لك أذنا لاقطة .

- أجل ، وعينا لاقطة وعقلا لاقطا . انى أحتاج

اليهم ، وخصوصا عندما أتعامل مع أناس مثلك . لماذا

لا ترتعشين ؟

- لأنى لا أحس بالبرد .

- ولماذا لا تشحبين ؟

- لأننى لست مريضة ..
- لماذا لا تسالينى عن بختك ؟
- لأنى لست ساذجة .

اطلقت المرأة العجوز ضحكة عالية رفيعة الصوت
 واشعلت غليوننا أسود قصيرا .. وبدأت تدخن .
 وبعد دقائق فردت جسمها المحنى ورفعت الغليون من
 شفيتها ، وقالت :

- أنت تحسين بالبرد ومريضة وساذجة .
- فاجبت :

- اثبتى ذلك .

- انك تحسين بالبرد لأنك وحيدة . لا شئ
 يقدح النار التى فيك .. انك مريضة ، لأن أفضل
 الأحاسيس ، أعلاها وأحلاها ، التى تعطى للرجل بعيدة
 عنك .. انك ساذجة ، لأنك مهما قاسيت فلن تقتربى
 منها ، ولن تتحركى خطوة واحدة لتلتقى بها حيث تنتظر
 من أجلك .

- لابد أنك قلت ذلك لكل واحدة تعيش فى مثل

ظروفي ..

- من النادر أن يعيش أى أحد فى نفس

ظروفك . اذا عرفتيتها ، فان وضعك غير عادى :

سعادة قريبة جدا ، أجل . يمكنك الوصول لها ..

كل الامور جاهزة .. حركة واحدة فقط مطلوبة

لادراكها !

- اننى لا أفهم الألفاظ .

- اذا رغبت أن اتكلم بصراحة أكثر ، أرىنى

كفك .

- وتنتظرين بعض المال ، على ما أظن ؟

- طبعا .

فأعطيتها شلنا ، فوضعتها فى جورب قديم

وعقدته ، وقربت وجهها الى يدي ، وقالت :

- انها رقيقة جدا . لا أستطيع قراءتها . علاوة

على أن الحظ لا يكتب فى اليد بل على الجبين ... فى

الوجه ... اركمى ، وارفعى وجهك .

فقلت وأنا اطيعها :

- آه ! والآن تأتين الى الحقيقة .

وحركت النار فصدر لهيب خافت متحرك من
الفحم المتأجج وسقط ضوؤه على تماما . ثم قالت
بعد أن فحصتني لفترة :

- ترى ما هي الأفكار التي تشغل قلبك أثناء
هذه الساعات الطوال التي تجلسينها بين أناس منعمين
هنا .

- أشعر بالتعب غالبا ، ناعسة أحيانا ، ولكن
نادرة حزينة .

- اذن لديك أمل سرى ليساندك ويسرك بهمسات
المستقبل ؟

- لست أنا . كل ما أمل فيه أن أوفر نقودا
كافية لأقيم مدرسة صغيرة خاصة بي في يوم ما .

- طعام فقير للروح لتعيش عليه : وتجلسين
على مقعد النافذة هناك . (ترين .. اننى أعرف
عاداتك) ...

– لقد عرفت ذلك من الخدم

– آه ! تظنين نفسك ذكية • حسن ، أقبول

لك الحق ، فعلا أعرف واحدة منهن وهي مسز بوول ••

فقفزت على قدمي وقلت في نفسي : « تعرفين ••

تعرفين ؟ هناك شيء غريب بخصوص ذلك » •

واردفت المخلوقة الغريبة قائلة :

– لا تنزعجى •• يمكنك ان تثقى في مسز

بوول • انها تحفظ السر • لكن كما كنت أقول :

جالسة على مقعد النافذة ، ألا تفكرين في شيء سوى

مدرسة المستقبل ؟ ألا يوجد وجه تدرسينه •• أو ربما

وجهان ؟

– انى أحب دراسة جميع الوجوه •

– ولكن عندما تجلس سيدة صغيرة جميلة ومن

أصل عريق وتبتسم في عيني السيد الذى أنت •••

– الذى أنا ماذا ؟

– الذى أنت نعرفيه ••• وربما تفكرين فيه

- اننى لا أعرف السادة هنا • اننى بالكاد تكلمت مع قليل منهم •
- هل ستقولين ذك عن سيد المنزل ؟
- انه ليس بالبيت •
- ولانه بعيد عن هنا لبضعة ساعات تقولين اذن انك لا تعرفينه ؟
- كلا ، ولكنى لا أرى لمستر روتشستر أى دخل بالموضوع •
- كنت أتكلم عن سيدات يبتسمن فى عيون السادة من الرجال •
- من حق مستر روتشستر أن يستمتع بصحبة ضيوفه •
- أجل ، لقد جلس مستر روتشستر لساعات وأذنه تجاه هاتين الشفتين مبدياً الامتنان للمتعة التى يحس بها •
- امتنان ، لا أتذكر ملاحظة أحاسيس امتنان على وجهه •

- ملاحظة ! لقد راقبته عن كثب أنئذ . ماذا لاحظت ، ألا توجد أحاسيس امتنان ؟ لقد رأيت حبا . ليس كذلك ؟ ... وتتطلعين الى المستقبل ، فترينه متزوجا ، وعروسته سعيدة ؟

- ليس بالضبط . ان حذق الساحرة فيك يخطئ أحيانا .

- ماذا رأيت ، اذن ؟

- لا بأس . لقد جئت هنا لأستفسر ، لا لأعترف . هل علمت بأن مستر روتشستر سيتزوج ؟

- أجل ، الآنسة انجرام الجميلة . لابد أنه يحب مثل هذه السيدة الفاتنة ، وربما هي تحبه ، أو على الأقل تحب ماله . ومع ذلك قلت لها شيئا عن أملاك روتشستر منذ نصف ساعة ، وهذا جعلها تبدو قلقة .

- لكن يا أمي ، انك لم تخبريني بشيء عن بختي .

- بختك لازال في موضع شك . عندما فحصت

وجهك ، وجدت أحد الملامح تعد بشيء وأخرى بالنقيض .
لقد أتاحت الفرصة قدرا من السعادة لك في جانب .
وعلى نفسك الاعتماد لتمدى يدك لتلتقطيها ، ولكن هل
ستفعلين ذلك ... انها المشكلة التي أدرسها . اركعى
ثانية على السجادة .

- لا تطيلي ... فنار المدفأة تلسعنى .

- اللهب يشرف على العين ، والعين تشرق
بلطف . انها تبدو رقيقة وجياشة بالشعور ، انها
تبتسم على كلماتى ، انها تنفتح لتؤثر . وعندما
لا تبتسم فهى حزينة ... فتبدى ثقل الروح الناتج
عن الوحدة . انها تشيح عني بنظرة ازدراء ... تبدو
رافضة لتقبل الحقيقة عندما اكتشفتها ... كبرياؤها
وتحكمها فى ذاتها يقويانى فى رأى .. العين مؤيدة ..

أما بالنسبة للفم ، فيفرح أحيانا ويضحك ،
وميال للتعبير عن أفكار صاحبه ، ولكنه قد يكون
كتوما بخصوص أحاسيسها . انه فم يحتاج للابتسامة
والحديث استجابة للحب الانسانى . انه أيضا
مؤيد .

ولا أرى عدوا إلا فى الجبين ، وهذا الجبين يريد
أن يقول : « يمكننى العيش وحدى ، اذا احترام النفس
وظروف الحياة حتمت على ذلك . فالرشد يجلس متربعا
ولن يسمح للأحاسيس أن تتفجر . قد تحترق العواطف
بعنف وتتخيل الرغبات جميع أنواع الأشياء عديمة
النفع ، لكن الحكمة ستتغلب على كل نزاع .
أجدت القول يا جبين ، وبيانك سيحترم : لقد
كنت خططى ، وفيها أصغيت لمطالب الضمير ، ويجب
على جمع الابتسامات لا الدموع . لكنى قلت ما فيه
الكفاية . وإلى هذا الحد احتفظت بنفسى تحت المراقبة ،
ولكن بعد ذلك قد تخضعنى لما وراء قوتى . انهضى
مس اير . اتركينى . التمثيلية انتهت .

أين كنت ؟ هل أنا يقظة أم نائمة ؟ لقد تعير
صوت المرأة العجوز . انه الآن مألوف لدى كوجهى
نفسه فى المرأة . ونهضت ولكننى لم أذهب . فأشارت
الساحرة لى ثانية بأن أذهب . وانعكست النار على
ذراعها . كان ذراعا ممتلئا مستديرا غير نحيل وعجوز .

ولم خاتم عريض فى الاصبع الصغير ... لقد رأيت
مرات كثيرة من قبل .

وسال الصوت المألوف :

- حسن يا جين ، هل تعرفيننى ؟
- انزع هذه الملابس الحمراء فقط ، يا سيدى ،
و ...

- لكن الخيط معقود ... ساعدينى !
- فكه يا سيدى !
وقال مستر روتشستر وهو يخطو خارج ملبسه
المستعارة :

- ها هو أنا ، اذن ...
- والآن ، يا سيدى ، يالها من فكرة غريبة !!!
- لكنها جيدة التنفيذ ، اليس كذلك ؟
- لابد أنك تدبرت الأمر جيدا مع السيدات .
- لكن اليس معك أيضا ؟

– انك لم تمثل شخصية الساحرة معى .

– أى شخصية مثلت ؟ شخصيتى ؟

– كلا . اعتقد انك كنت تحاول أن تجعلنى أتكلم

على راحتى . . لقد كلمتنى أى كلام لتجعلنى أتكلم أى
كلام . انها طريقة عادلة الى حد ما .

– هل تغفرى لى يا جين ؟

– لا أستطيع القول حتى أفكر فى الموضوع .

وبعد التأمل ، اذا وجدت أنى لم أقل شيئا سخيئا
جدا ، سأحاول أن أغفر لك ، لكنه لم يكن عدلا .

– ووه ، لقد كنت صائبة جدا . . . حريصة

جدا . . حساسة جدا . .

وتأملت وفكرت فى كل ما حدث لى . فكانت

منلوى . لكن ، فى الحقيقة كنت فى ريبة من بداية

الزيارة ، عرفت أن العرافات لا يعبرن عن أنفسهن

مثل هذه المرأة العجوز المتظاهرة . ومع ذلك كان عقلى

مشغولا بجريس بوول . ولم أفكر مطلقا فى مستر

روتشستر . **وقال :**

- حسن ، فى أى شىء تفكرين ؟ ماذا تعنى هذه
الابتسامة الهادئة ؟

- اندهاش وتهنئة نفسية يا سيدى . هل تأذن
لى بالذهاب الآن ؟

- كلا ، انتظرى لحظة .

- من الأفضل ألا أبقي طويلا ، يا سيدى . لا بد
أنها اقتربت من الحادية عشرة أوه ، هل تعلم يا مستر
روتشستر . . أن غريبا وصل هنا بعد مغادرتك فى
الصباح ؟

- غريب ! اننى لا أتوقع أحدا . هل ذهب ؟

- كلا . لقد قال انه يعرفك من زمن . اسمه
ميسون ، وهو قادم من جزر الهند الغربية ، من مدينة
أسبانية اسمها جامايكا ، على ما أظن .

كان مستر روتشستر واقفا بجوارى ، وقد أخذ
يدى وكأنه سيقودنى الى كرسى . وبينما كنت أتكلم
قبض على رسغى بعنف، وتبيست الابتسامة على وجهه،
وأخذ يتنفس بسرعة . وكرر الكلمات : « ماسون . . .

جزر الهند الغربية ! ، وأصبح وجهه وهو يتكلم أنصح
بياضاً من الرماد . ولم يدر ما الذى يفعله .
فاستفسرت :

— هل تشعر بالتعب يا سيدى ؟

فقال وهو يكاد أن يقع على الأرض :

— جين ، لقد صدمت . . . لقد صدمت . . . !

— أوه ، استند على يا سيدى .

— حين ، لقد سمحت لى بأن أستند على كتفك

ذات مرة من قبل . دعينى أستند عليه الآن .

وجلس وجعلنى أجلس بجانبه ، وقال :

— يا صديقتى الصغيره ! وددت لو كنت على

جزيرة هادئة وحدى معك . مع تخلصى من ذكريات
المشاكل والخطر والشر .

— هل يمكنى مساعدتك يا سيدى ؟

— احضرى لى ، يا جين ، كأساً من النبيذ من

غرفة الاستقبال .

ذهبت • فوجدت جميع من فى الحفل على العشاء .
فملأت كأسا من النبيذ • ورأيت مس انجرام تراقبني
بشكل مستهجن وأنا أقوم بذلك ... ربما ظننت أنى
أخذها لنفسى •

وعندما علت ، كان الشحوب المفرط لمستر
روتشستر قد اختفى ، وبدأ عليه ثانية العزم والجدية •
أخذ الكأس من يدى ، وابتلع النبيذ وأعاد الكأس لى ،
وقال :

— ماذا يفعلون يا جين ؟

— يضحكون ويتكلمون يا سيدى •

— ألم يبد عليهم الوقار والغموض وكانهم
سمعوا شيئا غريبا ؟

— على الاطلاق • انهم يفيضون مرحا •

— وميسون ؟

— انه كان يضحك أيضا •

- اذا ابتعد هؤلاء الناس عنى ازدراء ، ماذا ستفعلين يا جين ؟ هل تذهبين معهم ؟

- بل ، أعتقد لا يا سيدى . لتكون لى المتعة فى البقاء معك ..

- واذا حرموك من المجتمع لمساندتك لى ؟

- سأتحمل ذلك من أجل صديقى الذى يستحق مساعدتى ، أنا متأكدة .

- اذهبي الآن ثانية الى غرفة الطعام ، واتجهي بهدوء نحو ميسون ، واهمسي فى أذنه بأن مسـتر روتشستر قد جاء ويرغب فى أن يراه ، واحضره الى هنا ، ثم اتركىنى .

- اجل ، يا سيدى .

وامتثلت . فحلق الجميع الى وأنا أمر من بينهم فى استقامة ، ثم اتجهت الى ميسون ونفذت التعليمات .

وفى ساعة متأخرة ، بعد ذهابى الى الفراش بفترة ، سمعت صوت مسـتر روتشستر يقول :

- من هنا يا ميسون • هذه غرفتك • تصبح
على خير •

كان يتكلم فى ابتهاج • فأراح صوته المرح قلبى •
ونمت فى الحال .. !

الفصل الثاني والعشرون

صرخة في الليل

لقد نسيت أن أسحب ستارتي ، وعندما جاء القمر ، الذي كان بدرا ساطعا ، نظر الى عن طريق النافذة ، فتحت عيني .. ونهضت قليلا ومددت ذراعي لأسحب الستارة .

يا الهى ! يا لها من صرخة !

الليل ... وسكونه .. وراحته ، قد مزقه صوت حاد سرى من أول ثورنفيلد هول الى نهايته . ووقف قلبي ساكنا ، وذراعي الممتدة ظلت بلا حركة وماتت الصرخة .

لقد جاءت من الطابق الثالث ، فوقى ٠٠ أجل
فى الغرفة التى فوق رأسى تماما ٠٠ وسمعت الآن
صراعا : صراعا قاتلا كما يبدو من الضجة ، وصرخ
صوت بلا نفس :

— النجدة ! النجدة ! النجدة !

ثم بعد ذلك سمعت نداء :

— روتشستر ! لأجل الله تعالى لتنقذنى !

انفتح باب ٠٠٠ ركض شخص ما ، أو اندفع
على طول الممر ٠ وسقط شيء فوقى ثم سكون بعد
ذلك ٠

ارتديت بعض الملابس على جسدى المصدوم
بالرعب ، وتجاسرت وغادرت غرفتى ، وانفتح باب
وراء باب ٠ لقد انزعج كل الضيوف ، وانطلقت
التعجبات وهمهمات الفزع فى كل مكان ٠ « أوه ، ما
هذا ؟ ٠٠ « من أصيب ؟ ٠٠٠ « ماذا حدث ؟ ٠٠٠
« هل يوجد لصوص ؟ ٠٠ «

وصرخ الكولونيل دنت :

- أين روتشستر ؟ انى لم أجده فى فراشه

وجأت صيحة فى المقابل

- هنا ! هنا ! اهدوا جميعكم • انى قادم !

انفتح الباب فى نهاية الممر ، وتقدم مسستر روتشستر مع شمعة ، لقد نزل من الطابق الثالث ، وركضت احدى السيدات اليه فى الحال • وأمسكت بذراعه •• انها مس انجرام • فصرخ قائلا :

- كل شيء بخير ! كل شيء بخير ! انه مجرد لا شيء • السيدات تبتعد •

كانت عيناه السودوان تومضان ، وأخذ يهدى نفسه بمجهود ، ثم اضاف قائلا :

- خادمة كان لديها حلم سيء • هذا كل ما فى الامر • وهى عصبية بطبيعتها سهلة الاثارة • وتخيلت انها رأت شبحا فأصيبت بنوع من الصرع والفرع • والآن لابد أن أراكم جميعكم ثانية فى غرفكم !

وهكذا نجح بالتحريض والامس في ارجاعهم
ليرتاحوا . عدت الى غرفتي لكننى لم اذهب الى الفراش
وبدلا من ذلك بدأت ارتدى ملابسى بعناية . فالاصوات
التي قد سمعتها بعد الصرخة والكلمات التي قيلت
جعلتنى متأكدة انه ليس حلم خادمة الذي أيقظ
المنزل ، وأن التفسير الذي أعطاه مستر روتشستر
مجرد دعوة لتهدئة ضيوفه . فارتديت ملابسى لكي أكون
جاهزة اذا احتاج الامر لى ، وجلست مدة طويلة بجوار
النافذة .

عاد السكون .. وهدأت كل تمتمة وكل حركة
بالتدريج . وفى حوالى نصف ساعة بدت ثورنفيلد
حول نائمة مرة أخرى . كان القمر على وشك الغروب ،
وفكرت أن أستلقى ثانية وأنا كما أنا بملابسى .
وعندما انحنيت لأخلع حذائى قرعت يد حريصة على
الباب .

وسألنى الصوت الذى توقعت أن اسمعه :

— هل أنت متيقظة ؟

• - أجل يا سيدى

• - ومرتدية ملابسك ؟

• - أجل

• - تعالى ، اذن ، بسرعة

• فامتثلت • ووقف مستر روتشستر فى الممر

ممسكا بالضوء ، وقال :

• - أريدك ، تعالى من هنا • لا تسرعى ولا تعملى

• ضجة

وتحرك فى سكون على طول الممر ثم صعد السلم

الى الطابق الثالث • وتبعته

وأمسك بمفتاح فى يده ، ثم اقترب من احدى

الأبواب الصغيرة ووضع فى القفل ، ثم توقف

• هنيهة

• - انك لا تصابين باعياء عند رؤية الدم ؟

• - أعتقد لا ، ولكننى لم أجرب ذلك مطلقا

وأدار المفتاح وفتح الباب • فرأيت غرفة أذكر

أننى قد رأيتها من قبل ، يوم أرتنى مسز فيرفاكس المنزل ، ولكن يمكننى الآن رؤية باب داخلى كأن مخفيا خلف ستارة . كان هذا الباب مفتوحا . وسمعت من الغرفة الخلفية صوتا يشبه الحيوان المفترس تقريبا مثل عراك الكلاب . ووضع مستر روتشستر شمعته جانبا وقال لى :

– انتظرى دقيقة .

وتقدم الى الغرفة الداخلية ، فأعقب دخوله صوت ضحكة صارخة ، مزعجة فى البداية ، وتنتهى بصوت جريس بوول الشبحى : « ها ! ها ! » .. انها اذن كانت هناك .

وفى لحظة خرج سيدى وأغلق الباب ، وقال :

– هنا يا جين .

ومشيت حول ساتر الى الجانب الآخر من سرير كبير ، مع ستائر مسحوبة حوله . كان يوجد كرسى ذو مساند قرب السرير ورجل يجلس عليه مرتديا ملابس ما عدا الجاكيت . لقد تعرفت على ذى الوجه

الشاحب الذى يبدو بلا حياة .. الغريب ، ميسون .
ورأيت أيضا قميصه ملطخا بالدم من أحد الجانبين
ومن ذراعه ، وقال مستر روتشستر :

— امسكى الشمعة !

فأخذتها ، وأحضر وعاء مملوءا بالماء ، وفتح
قميص الرجل المجرّوح ، وبدأ يغسل الدم ، الذى كان
يتدفق بسرعة . وفتح مستر ميسون عينيه فى الحال
وأخذ يئن . وسأل :

— هل يوجد خطر فوري ؟

فقال له مستر روتشستر :

كلا ... أنه مجرد جرح . لا تهتم يا رجل !
سأحضر طبيبا لك بنفسى . سيمكنك الرحيل فى
الصباح .

ثم نادانى :

— جين .

— سيدى .

- سوف أتركك في هذه الغرفة مع هذا السيد
لمدة ساعة أو ربما ساعتين . سوف تفسلين الدم
عندما يسيل . . وإذا شعر بالضعف ستضعين كوبا
من الماء على شفتيه . سوف لا تتكلمين معه على الإطلاق
. . وانت يا ريتشارد ، ستجاذبن بحياتك إذا تكلمت
معها . وإذا انفعلت ، فلن أكون مسئولا عما قد
يحدث .

وتألم الرجل المسكين مرة أخرى . وراقبني
مستر روتشستر وأنا أنفذ تعليماته لفترة ، ثم قال :
- تذكرى . . الكلام ممنوع !

وغادر الغرفة ، ودخلت أنا فى شعور غريب
عندما دار المفتاح فى القفل وسمعت صوت خطواته
وهى تخبو بعيدا .

هنا فى الطابق الثالث ، كنت حبيسة فى إحدى
الغرف ، مع منظر الدم تحت عيني ، وقاتلة تكاد
تفصلنى عنها غرفة واحدة . والباقي يمكننى تحمله .
ولكنى ارتعشت عند فكرة هجوم جريس بوول على .

يجب ان احتفظ بمكانى مع ذلك . وعلى أن
انصت وراقب أيضا . أخذت أتصنت ولكنى لم اسمع
طول الليل سوى ثلاثة أصوات . . . وقع أقدام ، هممة
حيوان وانين انسانى عميق .

وأزعجتنى أفكارى الشخصية أيضا . أى جريمة
كانت هذه . . . ما هذا الغموض الذى تسبب فى الحريق
قبل ذلك ، والآن تسبب فى الدم وفى منتصف الليل؟
. . . أى مخلوقة هذه التى فى شكل امرأة عادية وتمتلك
صوتا لروح شريرة أحيانا ولحيوان مفترس أحيانا
أخرى ؟

وهذا الرجل الذى أنحنى عليه الآن ، هذا
الغريب تماما . . . كيف جاء ليتورط فى هذا الأمر
المرعب ؟ . . . ما الذى جعله يجد طريقه الى هذا الجزء
من المنزل ؟ . . . لماذا رضع لمطالب مستر روتشستر
للتكتم ؟ . . . ولماذا فرض مستر روتشستر هذا
التكتم ؟

وصرخت لنفسى :

- متى سيأتى ؟ متى سيأتى ؟

**و يمر الليل ببطء ، ومريضى الدامى يئن ، ولا
نجدة تأتى .. !**

الفصل الثالث والعشرون

نور الصباح

ذبلت الشمعة في النهاية ، وظهر نور رمادي
في الخارج مشيرا بأن النهار يقترب . وبعد فترة
سمعت نباح الكلب من بعيد . فعاد الأمل .
وبعد خمس دقائق ، دخل مستر روتشستر ومعه
الطبيب الذي أحضره .

وقال له :

— والآن يا كارتر ، كن سريعا ، امنحك نصف
ساعة فقط لمعالجة الجرح وربطه وانزال المريض الى
تحت .

- لكن هل هو قادر على الحركة يا سيدى ؟
- أجل ، أجل ، لا شىء خطير . انه عصبى ،
ويحتاج لتشجيع . تعال ، ابدأ العمل .

واقترب من ميسون ، وسأله :
- والآن ، يا عزيزى ، كيف حالك ؟

فكانت الاجابة الخافتة كالآتى :
- لقد أجهزت على .
- تشجع ! لقد فقدت قليلا من الدم ، هذا كل
شىء . كارتروا خبره بأنه لا يوجد خطر .

فقال الطبيب :
- سأفعل ما يمليه ضميرى . لكنى كنت أود لو
حضرت قبل الآن . ولكن كيف حدث هذا الجرح على
الكتف لم يتم بسكين ، توجد آثار أسنان هنا .

فتمتم ميسون قائلا :
- لقد عضتني . لقد هاجمتني مثل القطعة

المتوحشة ، عندما حصل روتشستر على السكن منها .
لم أتوقع ذلك .. كانت تبدو هادئة جدا فى البداية ..

فرد صديقه عليه :

- لقد حذرتك . لقد قلت لك أن تكون حريصا
عندما اقتربت منها . علاوة على أنك كان يجب أن تنتظر
الى الغد لآكون معك !

- لقد ظننت أننى قد أستطيع أن أعمل شيئا
طيبا .

- ظننت ! ظننت ! أجل ، ان صبرى ينفد عندما
أسمعك . ومع ذلك ، لقد عانيت لأنك لم تأخذ
بنصيحتى .. كارىر ، أسرع ! أسرع ! ستشرق
الشمس فى الحال ، ويجب أن أدعه يرحل من هنا .

- حالا يا سيدى لكن يجب أن اكشف على
الجرح الآخر فى الذراع . لقد غرست أسنانها هنا ،
أيضا .

فقال ميسون :

- لقد امتصت الدم • لقد قالت ستصفي قلبي
رأيت تعبيرا قويا بشكل خاص عن القرف والرعب
والكراهية يرتسم على وجه مستر روتشستر
ولكنه قال فقط :

- تعال وتحل بالصمت يا ريتشارد ولا تعباً
بتخريفها ، ولا تكرره •

ثم أردف قائلاً وهو يلتف الى :

- جين ، خذى هذا المفتاح ، وانزلى الى غرفة
نومي ، وأحضري قميصاً نظيفاً ، ثم اذهبي الى غرفة
مستر ميسون لتحضري الجاكيت •

فأطعته ، وفي فترة وجيزة ارتدى الرجل الجريح
ملابسه ووقف على قدميه • وكانت الساعة قد وصلت
الخامسة والنصف • وبدأ يمشي بسهولة بمساعدة
مستر روتشستر والطبيب ، ونزل على السلم بأقل
ضجة ممكنة • وكانت العربدة تنتظر في الخارج •

وقال مستر روتشستر عندما تبع كارتر وميسون الى
العربة :

- اعتنى به ، واحتفظ به فى منزلك حتى يصبح
معافى تماما . . مع السلامة يا ريتشارد .

- روتشستر . .

- ماذا ؟

- دعهم يهتمون بها . . دعهم يعاملونها بلطف .
دعهم . .

وتوقف وانفجر فى البكاء . . فقال له مستر
روتشستر :

- اننى أفعل ما فى وسعى ، وكذلك كنت ،
وسأكون .

ثم أغلق الباب وانطلقت العربة بعيدا . وأضاف
قائلا :

- أود من الله أن ينهى كل هذا !

وتحرك بخطوات بطيئة تجاه باب فى الجدار الذى
يحد حديقة الفواكه ، وفتحه ووقف ينتظرنى ،
وقال :

- جين ، تعالى هنا حيث بعض النقاوة للحظات .
- هذا المنزل مجرد سجن ألا تشعرين به هكذا ؟
- بالنسبة لى يبدو مكانا رائعا يا سيدى .

فقال :

- سحر عدم الخبرة فوق عينيك . والآن هنا
كل شئ حقيقى ، حلو ونقى .

وأشار الى التحويطة الخضراء التى دخلناها ، ثم
سار فى ممر محفوف بجميع أنواع الزهور النضرة
الجميلة على قدر ما يمكن لصباح الربيع أن يهين
ذلك . وكانت الشمس قد بدأت تظهر ، فسقط نورها
على الأشجار والممرات التى من تحتها .

- جين ، هل لك فى زهرة ؟
- وقطف وردة شبه مفتوحة ، وقدمها لى قائلا :

- لقد مررت بليلة غريبة يا جين وجعلتك تبدين
شاحبة . هل خفت عندما تركتك لوحداك مع ميسون ؟
- لقد خفت من أحد يخرج من الغرفة الداخلية .
- ولكنى أغلقت الباب بالمفتاح . وكنت فى
مأمن .
- هل ستظل جريس بوول تعيش هنا ،
يا سيدى ؟
- أوه ، أجل ! لا تشغلى بالك بها .
- ومع ذلك ، يبدو لى أن حياتك غير مأمونة مع
بقائها .
- لا تخافى ... سأخذ حذرى .
- هل الخطر الذى خفت منه الليلة الماضية زال
الآن يا سيدى ؟
- لا يمكننى أن أجزم حتى يفادر ميسون
انجلترا ، ولا حتى عندئذ .
- لكن يبدو أن ميسون سهل الانقياد . فتأثيرك

عليه يا سيدي قوى بشكل واضح . فلن يؤذيك متعمدا
أبدا .

فضحك مستر روتشستر بمرارة وأخذ يدي
بسرعة ، وبسرعة أيضا القى بها ثم قال :

- أوه ، كلا ! انه لن يعصاني ... لكن بدون
قصد قد يتسبب ، في لحظة بسبب كلمة طائشة في أن
أفقد حياتي بل أفقد فرصتي الوحيدة في السعادة .
يجب أن أبعده عن اكتشاف امكانية ايذاءي بهذا
الشكل . والآن ، بدت عليك الآن الحيرة وسأحريك أكثر .
انت صديقتي الصغيرة ، أليس كذلك ؟

- أحب أن أخدمك يا سيدي ، وأطيعك في كل
ما هو صواب .

- بالضبط ، وأرى أنك تفعلين . كما أرى رضا
مخلصا في وجهك عندما تساعديني فيما تسميه « في
كل ما هو صواب » . ولكن اذا قلت لك أن تفعل
ما تعتقدين أنه خطأ ، فستلتفت صديقتي عندئذ نحوي
حادثة شاحبة وتقول : « كلا يا سيدي ، هذا مستحيل »

.. حسن ، انت أيضا لك سلطة على ، وقد تؤذيني
ولا أجرو أن أظهر مكانى الضعيف ، خوفا من أنك قد
تضرينى فى الحال ، بالرغم من أنك مخلصه وصدوقة .

- اذا لم يكن لديك ما تخافة من مستر ميسون
اكثر مما تخافه منى يا سيدى ، فانت فى امان تماما .

- فليسمع الله أن يكون الأمر هكذا ! هاك
يا جين مقعدا . انك لا تترددى فى أن تأخذى مقعدا
بجانبي ، أليس كذلك ؟

فشعرت أنه ليس من الكياسة أن ارفض ،
واضاف قائلا :

- حسن ، يا جين ، سأسألك النصيحة . لنفرض
انك لست فتاة صغيرة حسنة التربية ، بل ولد
متوحش ، مدلل منذ طفولته . تخيل نفسك فى بلدة
أجنبية بعيدة .. لنفرض انك هناك اقترفت غلطة
خطيرة ، غلطة ستتبعك نتائجها طوال حياتك ..
تذكرى ، أنا لا أقول جريمة . ان كلمتى « غلطة » ،
وتصبح الحياة مرة وبائسة . فتتجولين هنا وهناك ،

• تحاولين أن تجدى السعادة فى المتعة الكسولة • وتعودين للوطن بعد سنوات عديدة متعبة مستاءة • • • فتقابلين شخصا ما مختلفا • وتجدين فى هذا الغريب الحاصل الطيبة الذكية التى كنت تبحثين عنها دون جدوى مدة عشرين سنة • وتشعرين بأحاسيس أنقى تعود اليك ، وترغبين فى بدء حياة جديدة • • ولكى تفعل ذلك ، هل تكونين على صواب فى التفاوض عن عرف لا يقبله ضميرك ولا توافق عليه حكمتك ؟ هل من الصواب أن تتحدى رأى العالم لكى تربطى نفسك الى الأبد مع هذا الغريب اللطيف ؟

وتوقف منتظرا اجابة ، وماذا كان على أن أقول ؟
أوه ، فلتهل روح طيبة لتقترح اجابة حكيمة مرضية ،
واجبت :

- سيدى ، لا يجب أن يعتمد تحسن انسان كلية على كائن آخر • بل يجب أن يتطلع الى أعلى من قرناؤه كقوة تقوده الى حياة أفضل •

- لكن الوسيلة ! أن الله الذى قام بالعمل

اختار الأداة ... الواسطة ... الوسيلة ... واعتقد
اننى وجدت الوسيلة لعلاجى فى ...

وترقف ... واخذت الطيور تفرد وأوراق الشجر
تتمايل ... وأخيرا نظرت الى محدثى • كان ينظر
الى بشغف .. وقال فى صوت متغير تماما ، وتغير
وجهه أيضا ، فاقدًا كل رفته ، وأصبح جامدا ومزدريا :

- صديقتى الصغيرة ... لقد لاحظت شعورى
الرقيق نحو مس انجرام • ألا تعتقدين اذا تزوجتها
ستجعلنى أفضل حالا .. ؟

ونهض فى الحال ، وذهب الى الطرف الآخر من
الممر ، وعندما عاد كان يصفر لحنا ..

- انها شخصية نادرة ، أليس كذلك ، يا جين ؟

- أجل ، سيدى •

- جمال حقيقى ، يا جين ... عجبنا ، كولونيل
دنت ولين فى الحديقة • ارجعى الى المنزل من هذا
الباب الجانبى •

وبينما ذهبت أنا في طريق ، ذهب هو في طريق
آخر ، وسمعه يقول لضيوفه بهرح :

— ميسون استيقظ قبلكم هذا الصباح • ولقد
ذهب قبل شروق الشمس • لقد استيقظت في الرابعة
لأقوم بتوديعه ••

الفصل الرابع والعشرون

أخبار من جيتسهيد

وبعد ظهر نفس اليوم ، نادوني الى الطابق السفلى لأن شخصا ما يريدني في غرفة مسز فيرفاكس . وهناك وجدت رجلا له مظهر خادم لأحد السادة مرتديا ملابس سوداء ، وقال ناهضا عند دخولي :

- أتوقع ألا تذكريني يا آنسة ، ولكنى كنت سائق العربّة عند مسز ويد عندما كنت فى جيتسهيد ومازلت أعيش هناك .

- أوه ، كيف حالك ؟ اننى أتذكرك جيدا .
وكيف حال بيسى ؟ لقد تزوجت بيسى ، أليس كذلك ؟

- أجل ، زوجتى • انها بخير ، شكرا لك •

- وهل العائلة بخير فى المنزل •

- آسف لا أستطيع أن أعطيك أخبارا حسنة

يا آنسة •• لقد توفى مستر جون منذ أسبوع فى لندن •

- مستر جون ؟

- أجل • كانت حياته متطرفة جدا • لقد

استدان كثيرا ثم دخل السجن •• وساعدته والدته مرتين ، ولكنها رفضت فى المرة الثالثة ، والخبر الذى تلا ذلك كان خبر وفاته • يقولون أنه قتل نفسه !

لذت بالصمت ، كان الخبر مزعجا ، واستمر

سائق العربى قائلا :

- وكانت السيدة نفسها فى صحة سيئة لفترة

من الوقت • ولقد أزعجها فقدان المال والخوف من الفقر • وكانت صدمة وفاة مستر جون فجائية •• فمرضت وظلت ثلاثة أيام بلا كلام ، ولكن الثلاثاء

الماضى بدا عليها التحسن وأخذت تشير لبيسى وتتمتم
.. وفهمت زوجتى أخيرا الكلمات : « أحضروا جين
اير . أريد أن أتحدث اليها ! » .. فأخبرت الأنسة
اليزا والأنسة جيورجيانا ونصحتهما أن يبعثانى لك ،
وأخيرا وافقتا . اذا امكنك أن تكونى جاهزة يا آنسة ،
فاود أن آخذك معى مبكرا فى صباح الغد !

- أجل ، ساكون جاهزة . يبدو لى أننى يجب
أن أذهب .

وبعد أن وجهته الى صالة الخدم ، ذهبت باحثة
عن مستر روتشستر . كان يقوم بكرم الوفاة
لضيوفه . ويحتاج الموقف منى لبعض الشجاعة فى
ازعاج الجماعة ، لكن ظروفى كانت عاجلة ..
فاقتربت من السيد حيث كان يقف بجانب مس انجرام .
فالتفتت عندما اقتربت ، وعندما قلت فى صوت
منخفض : « مستر روتشستر » قامت بحركة كأنها
تنوى أن تأمرنى بالابتعاد .

تبعنى مستر روتشستر خارج الغرفة ، وقال
وهو يستند على باب غرفة الدراسة الذى أغلقه :

- حسن يا جين ؟

- من فضلك يا سيدى ، أريد أذنا بالغياب
لمدة أسبوع أو اثنين .

- لماذا ؟ أين تذهبين ؟

- لأرى سيدة مريضة ، زوجة خالى ، فى
جيتسهيد . لقد بعثت لى .

- وما الفائدة التى يمكنك أن تفعلها لها ..
هراء يا جين ! .. انا لا أفكر مطلقا فى أن تركضى مئات
الأميال لترى انसानه ما من المحتمل أن تموت قبل أن
تصل اليها .

- لن يرتاح عقلى ، اذا أهملت رغباتها .

- عدينى أن تبقى أسبوعا واحدا فقط .

- من الأفضل ألا أعطى كلمة ، فربما أجبر على
الاخلال بها .

- لكنك ستعودين ثانية ؟ ولن تفويك لتبقى
معهما بصفة دائمة ؟

- أوه ، كلا ! سأعود بالتأكيد اذا كانت الامور
بخير .

- حسن ، لابد أن معك بعض النقود . لم
اعطك مرتبك بعد .. كم معك من حطام الدنيا ،
يا جين ؟

فاخرجت محفظتي وقلت :

- خمسة شلنات يا سيدى .

فضحك وبحث فى جيوبه وقال وهو يقدم لى
خمسين جنيها فى ورقة نقد واحدة :
- آه .. ها هى !

فقلت له انى لا أستطيع أن أفك هذه الورقة
النقدية الكبيرة . فقال على الفور :

- لا أريد أن أفكها .. تعرفين ذلك . خذى
حقك !

فرفضت أن أقبل أكثر مما أستحق . فهو
مدين لى بخمسة عشر جنيها فقط .. فنظر غاضبا
فى البداية . ثم قال وكأنه تذمر شيئا :

- تمام ! تمام ! من الأفضل الا أعطيها لك كلها
الآن . فقد تجعلك تبقي هناك ثلاثة شهور . اليك
بعشرة جنيهات . هذا كاف ، أليس كذلك ؟

- أجل يا سيدي ، ولكنك الآن مدين لي بخمسة
جنيهات ..

- عودي من أجلها .

- مستر روتشستر ، يعن لي أن أذكر مسألة
أخرى خاصة بالعمل طالما أن لدى هذه الفرصة .
- خاصة بالعمل ؟ أحب أن أسمع ذلك .

- لقد ابلغتني يا سيدي ، بأنك ستتزوج قريباً .
في هذه الحالة يا سيدي ، يجب الحاق أديل بمدرسة .
- لأبعدها عن طريق عروستي ؟ وأنت ؟

- يجب أن أجد وظيفة أخرى في مكان ما ..
يجب أن أعلن عن البحث عن وظيفة .. !

فقال مع حدة في الصوت والتواء في ملامحه :

- طبعاً ! .. يمكنك أن تعلمي ! .. ياليتني

قدمت لك جنيها واحدا بدلا من عشرة . . أرجعى لى
تسعة جنيها ، جين ، انى احتاج لهم .

فاجبت واضعة يدى ومحفظتى خلف ظهري :

– وأنا أيضا يا سيدى .

فقال :

– يالك من بخيلة ! اعطينى خمسة جنيها
يا جين !

– ولا خمسة شلنات يا سيدى ولا خمسة
بنسات .

– اذن دعينى ألقى نظرة على النقود .

– كلا يا سيدى ، انك لا تؤتمن .

– جين !

– سيدى ؟

– عدينى الا تعلنى عن البحث عن وظيفة ، وأن
تتركى لى موضوع الحصول على وظيفة لك .

– سأكون سعيدة بذلك يا سيدى ، اذا وعدتنى

بدورك أن أديل وأنا سنكون فى أمان خارج المنزل قبل
أن تدخله عروسك .

- حسن جدا ! ستذهبين غدا ، اذن ؟

- أجل يا سيدى مبكرا .

- اذن يجب انت وأنا أن نعلن وداعنا لفترة

قصيرة ؟

- أظن ذلك يا سيدى .

- وكيف تودى الناس طقوس هذا الفراق ؟

علمينى يا جين !

- يقولون « مع السلامة » أو أى تعبير آخر

يفضلونه .

- اذن قولها .

- مع السلامة يا مستر روتشستر ، والى

لقاء ..

- تبدو جافة بالنسبة لى ، وغير ودية : احب

شيئا آخر . اذا صافح الناس بعضهم ، مثلا ، لكن

لا ... هذا لن يقنعنى أيضا .

فسالت نفسي :

- الى متى سيقف وظهره على الباب ؟ اننى أريد
ترتيب حقائبي !

ودق جرس العشاء فاندفع مبتعدا بدون كلمة
خرى ..

الفصل الخامس والعشرون

سر مسز ريد

وصلت جيتسهيد حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وذهبت أولا لأرى بيسى ، التى أصرت على أن أتناول الشاى معها . . وتزاحمت ذكريات الأيام السالفة فى عقلى ، عندما راقبتها وهى تتحرك فى بيتها ، معطية أطفالها من حين لآخر ضربة أو دفعة تماما كما اعتادت أن تعطينى مثل تلك الضربات فى الأيام السالفة . ومازالت سريعة الانفعال ، جميلة المنظر . وبعد نصف ساعة تقريبا مشيت معها تجاه المنزل الذى تركته ، منذ تسع سنوات يائسة وحيدة ، بائسة القلب مجهولة المستقبل . . وقالت بيسى :

- ستذهبن الى غرفة الافطار أولا . . الفتانان
ستكونان هناك .

وفى دقيقة أخرى ، كنت داخل هذه الغرفة ،
حيث توجد كل قطعة أثاث هى نفسها كما كانت فى
صباح اليوم الذى قدمت فيه لمستر بروكلهيرست .
حتى السجادة التى وقف عليها مازالت موضوعة أمام
المدفأة . ونظرت الى أرفف الكتب ، فوجدت « رحلات
جليفر » فى مكانها القديم على الرف الثالث .

أما الأشخاص ، فلقد تغيروا كثيرا لدرجة اننى
لم أتعرف عليهم . وظهرت فتانان أمامى . واحدة كانت
طويلة جدا ونحيفة ولها تعبير صارم وترتدى ثوبا
بسيطا للغاية . هذه هى اليزا . . . أما الأخرى
الشقراء ، جميلة المنظر ذات الملامح العادية والعيون
الزرقاء فكانت جيورجيانا .

وعندما تقدمت نهضتا للترحيب بى ، وبعد التحية
لم تعيرانى أى انتباه ، فيما عدا أن الصغرى أخذت
تفحص نوعية ملابسى البسيطة غير المتماشية مع الذوق
الحديث بعين ناقدة .

لم يعد لاستخفافهما أية قدرة على ايذاءى ولما
أبديتا عدم الرغبة فى رؤيتى لأمهما ، ذهبت فوراً
بدون سؤالهما .

لم أكن فى حاجة لدليل للغرفة التى أعرفها
جيداً ، والتى كثيراً ما دعيت إليها لأتلقى العقاب فى
سابق الأيام . واقتربت من السرير ونظرت بشغف
للملامح المألوفة . انه شئ سعيد أن تنتهى هذه المرة
الرغبة فى الانتقام وتخدم أحاسيس الغضب والكراهية
.. وانحنيت وقبلت خالتى : فرفعت بصرها الى
وقالت :

- أنت جين اير ؟

- أجل يا خالة ريد . كيف حالك ، خالتى

العزيزة ؟

كنت قد أقسمت ذات مرة الا أدعوها خالتى مرة
أخرى . لكننى فكرت بأنه ليس من المخجل نسيان ذلك
الآن . ووضعت أصابعى على يدها الممتدة فوق الملاءة ،
ولكنها سحبت يدها بعيداً ، وأشاحت بوجهها عنى .

فشعرت بالألم ثم بالحنق .. وسالت دموعي تماما كما
كنت في طفولتي ، ولكنني تماسكت وقلت :

- لقد بعثت في طلبى ، فجئت !

- أوه ، طبعاً ! أقول لبناتى أود أن تبقين حتى
استطيع أن أكلّمك عن شىء يضجرنى . هناك شىء
رغبت فى قوله دعينى أفكر

تدل النظرة الثائرة والصوت الغريب على التغير
الذى حدث فى شكلها ، هى التى كانت فى صحة
وعافية فى يوم ما . ووجدت ، وهى تلتفت فى قلق ،
ذراعى مرتاحة على ركن الملاءة . فقالت :

- اجلسى ، ولا تضايقينى بشد الملاءة . هل
أنت جين اير ؟!

- انا جين اير !

- لقد سببت لى هذه الطفلة ازعاجاً لا يتصوره
أحد .. كانت شيئاً غير مقبول فتركوه فى رعايتى !
لقد سعدت عندما تخلصت منها وغادرت منزلى .. تفشت

الحمى فى لوود ، ولم تمت .. ولكنى قلت انها ماتت . تمنيت أن تكون ماتت !

— لماذا تكرهينها هكذا يا مسز ريد ؟

— كنت أكن لأمها الكراهية . كان زوجى مغرماً بأخته فأرسل وراء طفلتها عندما ماتت . كانت شيئاً ضعيفاً ، دائم البكاء . واعتاد زوجى أن يلاحظها أكثر من أولاده هو . وكان يفضب منهم من أولاده عندما لا يلعبون معها .. وجعلنى أقطع على نفسى عهداً بأن أعتنى بها .. جون لا يشبه أباه ، وأنا سعيدة بذلك . أوه ، أود لو يتوقف عن طلب نقود منى ! جون ينفق بشكل مرعب على ورق اللعب . ودائماً يخسر ، المسكين ! عندى هموم ثقيلة . ما العمل ؟

وبعد ذلك بدأت تهيج وتضطرب . فحثتها بيسى بصعوبة على تناول بعض الأدوية .. فأصبحت أهدأ ، وخرجت من حجرتها ..

ومضى أكثر من عشرة أيام قبل أن أحصل على حديث آخر معها .. وكانت صحبتى مع بنات خالى

لا ترضيني الا الشيء النزير ، ولكن كان معى أدوات الرسم فشغلت بها وقتى .

وبعد فترة ، فرحت جيورجيانا برسمى صورة لها ، وأسرت لى بأمور الحب المختلفة التى استمتعت بها فى لندن منذ سنتين . وكانت اليزا تتحدث قليلا ، لكنها كثيرا ما تتشاجر مع أختها .

وبعد ظهر أحد الأيام المبتلة العاصفة ، سقطت جيورجيانا نائمة فوق رواية كانت تقرأها . . . وذهبت اليزا الى الكنيسة . . . فكرت أن أصعد للطابق العلوى وأرى كيف حال السيدة التى تنازع الموت ، التى ترقد هناك شبه مهملة حيث كان الخدم والمرضة لا يعتنون بها عناية كافية، كما كانت ابنتاها لا تهتمان، بالإضافة الى أن بيسى كانت مشغولة بأسرتها . ووجدت غرفة المريضة بدون اشراف ، كما توقعت .

ظلت المريضة ساكنة ، ونظرت طويلا اليها . . . وتذكرت هيلين بيرنز ، وأنصت فى خيالى الى صوتها المحبب وهى تقول كلماتها الأخيرة لى ، عندما جاءت مهمة ضعيفة من السرير :

— من هذا ؟

فاجبت ، ولكن مضت فترة قبل أن تتعرف علي
مسز ريد . وقالت بعد مدة :

— اننى مريضه جدا الآن . من الأفضل أن أريح
عقلي قبل أن أموت . الشيء الذى نفكر فيه قليلا ونحن
فى صحتنا ، يزعجنا فى مثل هذه الساعة ، كما
حدث لى . هل يوجد أحد آخر هنا ؟
فاخبرتها باننا بمفردنا فقالت :

— حسن ، لقد أخطأت فى حقك مرتين ، الشيء
الذى آسف عليه الآن . مرة عندما حنثت بوعدى
لزوجى بأن أربيك كابنتى . ومرة أخرى ...

وتوقفت ، ثم تمتعت لنفسها :

— على كل ، انها ليست ذات أهمية ، على ما اظن
... وعندئذ قد لاتحسن ... كم من المؤلم أن أبدى
خجلنى منها ..

وقامت بمحاولة لتتحرك ، ولكنها فشلت ،
وتغير وجهها وهى تقول :

— حسن ؛ يجب أن أفعل ذلك • من الافضل
أن أخبرها • اذهبي الى مكتبي ، افتحيه ؛ وأحضري
الرسالة التي ستجدينها هناك !

فاطمت تعليماتها ، ثم قالت :

— اقرئي الرسالة !

كانت رسالة موجزة كالتالي :

مدام

هل لك أن تتفضلى بأن تبعثى لى بعنوان ابنة أخى
جين اير ، وأن تخبرينى كيف حالها ؟ ان قصدى أن
اكتب لها قريبا وأطلب منها لتأتى وتعيش معى هنا
فى ماديرا •• فאלله قد بارك لى فى عملى بالنجاح ،
حيث اننى غير متزوج وليس لى اطفال ، أرغب فى ان
اتبناها واترك لها عند وفاتى كل ما فى حوزتى ••

اننى يامدام

المخلص لك

جون اير •

كانت مؤرخة منذ ثلاث سنوات مضت • فسالت :

— لماذا لم أسمع بذلك مطلقا •

— لأنى كرهتك بعق شديد • لم أستطع أن
أنسى كيف اتهمتيني بالقسوة ذات مرة ، وأخبرتيني
أنك تكرهينى أكثر من أى شىء فى العالم ، فانتفمت
وكتبت لعمك أخبره أن جين اير قد ماتت بالحمى فى
لوود ... والآن افعل ما يحلو لك !

فقلت :

— عزيزتى مسز ريد ، لا تفكرى فى هذا الأمر
أكثر من ذلك • سامحيني للغتى الانفعالية ، لقد كنت
طفلة عندئذ •

فاجابت :

— كانت لك طبيعة سيئة • وحتى الآن أجد من
المستحيل أن أفهم كيف تكونين صبورة لمدة تسع
سنوات تحت أى ظروف •

— اننى لست سيئة جدا كما تظنين • ففى أوقات

كثيرة ، كطفلة ، كنت سأسعد بحبك لو كنت سمحت
لي .. قبليني يا خالتي !

وقربت وجهي الى شفتيها ، فلم تلمسهما .
وأخذت يداها تبردان ودخلت بيبي ، وانتظرت مدة
نصف ساعة ، ولكنها لم تتحرك . وفي تمام الساعة
الثانية عشرة في تلك الليلة ، ماتت ..

الفصل السادس والعشرون

العودة الى ثورنفيلد

لقد منحني مستر روتشستر أجازة لمدة أسبوع واحد فقط ، ولكن مضى الآن شهر قبل أن أترك جيتسهيد . رغبت أن أذهب فورا بعد الجنازة ، لكن ابنتي خالي حثتاني على البقاء حتى تكملا ترتيباتهما للرحيل ، فسوف تذهب جيورجيانا الى بيت عمها في لندن ، حيث تزوجت فيما بعد بقليل ، وستذهب اليزا الى منزل ديني في فرنسا ، حيث أصبحت راهبة بعد ذلك .

بدت رحلتى طويلة جدا ، وكان عقلي غير مرتاح .

كنت عائدة الى ثورنفيلد ، ولكن الى متى سأبقى هناك ؟ ٠٠ لقد سمعت من مسز فيرفاكس أن الضيوف قد رحلوا ، وأن مستر روتشستر قد غادر الى لندن ، ليعود الترتيبات لزفافه حيث كان يتحدث عن شراء عربة جديدة ، ومن المتوقع عودته قريبا .

لم أخبر مسز فيرفاكس التاريخ المضبوط لعودتي ، حيث كنت لا أريد أن تلقاني العربة في ميلكوت . ومشيت المسافة بنفسى بهدوء ، سالكة الطريق القديم عبر الحقول . كانت أمسية صيف معتدلة ، وكان صناع القش يعملون على طول الطريق .

ومشيت حتى بقى حقل أو حقلان أعبرهما فأصبحت قريبة من البيت . ٠٠ كانت الشجيرات مليئة بالورد البري ، ولكن لم يكن عندي وقت لقطعها . كنت أريد أن أصل المنزل بسرعة . ومررت على شجيرة طويلة ، ورأيت المرقى مع السلالم الحجرية ، ورأيت مستر روتشستر جالسا هناك وكان يمسك فى يده كتابا وقلما ، وكان يكتب . ٠٠

فى هذه اللحظة لم أعد قادرة على الحركة . ولم

أكن افكر بأن أرتعد بهذه الطريقة عندما رأيته ، ولا أن
أفقد صوتى فى حضوره . وأردت العودة وأدخل المنزل
عن طريق آخر ... ولكنى لم أستطع التحرك .
وأصبح ذلك لا فائدة منه ، لانه رآنى . وصاح وهو
يضع كتابه وقلمه جانبا :

- آه ! هذا انت ! تعالى ، اذا سمحت !

فذهبت باذلة ما فى وسعى أن أظهر هادئة .

- وهل هذه جين اير ؟ هل أتيت من ميلكوت
سيرا على الاقدام ؟ اجل ... انها احدى خدعك ، أن
تأتى الى بيتك بهدوء عند الشفق كما لو كنت حلما
أو روحا ... ماذا كنت تفعلين فى هذا الشهر ؟

- لقد كنت مع خالتى يل سىدى ، التى توفيت ..

- اجابة خاصة بجين حقا ! فلتحرسينى أيتها
الأرواح الطيبة ! انها تأتى من العالم الآخر ... من
أرض الموت ! هل أتجاسر وأمسك ، لأرى ان كنت مادة
أم ظللا ...

ثم اضاف بعد فترة صمت قائلا :

- غير مخلصه ! غائبة لمدة شهر كامل ونسيتينى تماما ... أقسم بذلك !

• لم يغادر المرقى ، وكدت أرغب فى الذهاب اليه .
• واستفسرت فى الحال اذا لم يكن قد ذهب الى لندن .

- أجل ، أعتقد أن مسز فيرفاكس قد أخبرتك
السبب . يجب أن ترى العربة يا جين ، وأخبرينى اذا
لم تكن تلائم مسز روتشستر بالضبط . أود ،
يا جين ، لو كنت أضاهاها فى حسن مظهرها . أخبرينى
الآن يا ساحرة ... ألا تستطيعين اعطائى سحرا ليجعل
منى رجلا حسن المظهر ؟

- ان هذا فوق قدرة السحر يا سيدى .

واضفت فى فكرى قائلة :

- العين المحبة هى كل السحر المطلوب .
ولهذه ... أنت حسن المظهر بما فيه الكفاية ، أو لعل
قسوتك لها قوة فوق الجمال .

كان .مستر روتشستر يقرأ أحيانا أفكارى غير
المنطوقة فى سرعة لا أفهمها . ففى الحالة الراهنة ،
لم يهتم بكلماتى الحادة ، بل ابتسم لى ابتسامة معينة
خاصة به والتى كان يستخدمها فى مناسبات نادرة
فقط . . انها كانت اشراق الشمس الحقيقية للشعور .
ثم قال وهو يفسح لى مجالا لعبور المرقى :

- مرى يا جين . اذهبى الى البيت وارتاحى .

كل ما كان على أن افعله هو الامتثال له فى
سكون . وعبرت من فوق المرقى بلا كلمة قاصدة أن
أتركه فى هدوء . ولكن قوة ما جعلتنى التفت خلفى ،
وقلت برغم نفسى :

- شكرا ، مستر روتشستر على كرمك العظيم .
أنا سعيدة بشكل غريب لأعود اليك ثانية . وبيتى ،
حيث أنت .

ومشيت بسرعة لدرجة أنه لم يكن يستطيع
اللتحاق بى اذا حاول ذلك . . أصبحت أديل الصغيرة
شبه مجنونة بالفرح عندما رأتنى . . واستقبلتنى مسر

فيرفاكس بصداقتها الصريحة المعتادة ، وحتى الخدم
ابتسمن لى . . كان ذلك مبهجا ، حيث انها المرة الاولى
فى حياتى التى جربت فيها فرحة العودة الى البيت .
وأعقب عودتى الى ثورنفيلد أسبوعان من الهدوء .
ولم يذكر شىء عن زواج سيدى ، ولم أر أى استعدادات
لمثل هذا الحدث . وأدهشنى شىء واحد بصفة خاصة ،
وهو عدم وجود رحلات للزيارة ولا زيارات لمزرعة
« انجرام بارك » . . ولم أذكر ابدا فى أى وقت كان
وجه سيدى مستبشرا هكذا . فاذا قضيت مع تلميذتى
أوقاتا بصحبته وكنت كثيفة مبتثسة ، لأصبح هو
مرحا مبهجا . وأخذ يدعونى لحضرته بشكل متكرر . .
وآه ! فلم أكن أحبه هذا الحب الجميل من
قبل . . . !

الفصل السابع والعشرون

هبوب العاصفة

وفي احدى أمسيات الصيف ، ذهبت اديبل ،
المتعبة من جمع الفواكه البرية الى النوم مبكرا .
وراقبتها الى أن استغرقت فى النوم ، وعندما تركتها
ذهبت الى الحديقة .

كانت الآن أحلى ساعة فى اليوم كله . غروب
الشمس يعطى مكانه لشرق القمر . واكتشفت ممرا
• ملتويا حيث يمكننى التجوال دون أن يرانى أحد ،
ولكن ترددت خطواتى بعد مسافة وجيزة . شئ ما
جعلنى أتوقف . لا صوت ، ولا منظر ولكن رائحة

منذرة • لم تكن هذه الرائحة الجديدة لأوراق الشجر
ولا لزهرة من الزهور • كانت - رائحة أعرفها جيدا -
سيجار مستر روتشستر • فرأيته عن بعد ، فخطوت
جانبا الى مقعد فى أحد الأركان ، وفكرت قائلة :

- اذا جلست ساكنة فلن يرانى !

وأخذ يتجول • • ثم يتفحص الفاكهة على
الشجيرات • • والآن بدأ ينحنى تجاه نبات مزهر •
فاستقرت حشرة كبيرة بضجة واضحة قرب قدمه •
فراها والتفت ليفحصها •

وفكرت :

- والآن ، ظهره تجاهى ، ربما أمكننى المشى
بهدوء ، حتى أستطيع التسلل خارجة دون أن
يلاحظنى •

فمشيت بلطف على طريقة مغطاة بالعشب ، ولكن
عندما عبرت ظله الذى يلقيه القمر طويلا على الحديقة
قال بهوء دون ان يلتفت :

- ارجعى يا جين . انه من المخجل ان تبقى فى
الداخل فى مثل هذه الامسية الجميلة !

من أحد عيوبى ، رغم أن لسانى كثيرا ما يكون
جاهزا للإجابة الفورية ، إلا أن هناك أوقاتا عصيبة
يفشل فيها لسانى بشكل محزن فى تقديم اعتذار ..
ويظهر هذا الضعف دائما فى اللحظة الصعبة ، عندما
أحتاج لكلمة ما بسيطة للخروج من موقف محرج
.. لقد فشل لسانى الآن .. وقال مستر روتشستر
عندما دخلنا طريقا محفوقا بالأشجار :

- جين ، ثورنفيلد مكان جميل فى الصيف ؟
اليس كذلك ؟ ألا تأسفى لتركها ؟

فسالت :

- أيجب أن أتركها ، يا سيدى ؟

- مع الأسف يا جين ، أعتقد ذلك .

- اذن ستتزوج يا سيدى ؟

فى غضون شهر آمل أن أحضر عروسى للبيت .

ولقد سمعت ، عن طريق حماتي المستقبلية ، عن مكان
أعتقد أنه يناسبك ، حيث تعلمين خمس بنات لسيدة
في غرب أيرلندا ..

— انه مكان بعيد يا سيدى .

— لا بأس . فلن تمنع فتاة فى ادراكك بسبب
الرحلة أو البعد .. لقد أصبحنا خير أصدقاء يا جين
أليس كذلك ؟

— أجل يا سيدى

ومن غير المحتمل أن نلتقى ثانية . أعتقد أنك
ستنسبنى ؟

— هذا لا يجب على أبدا يا سيدى ، تعرف ..

كان من الصعب الاستمرار ..

— جين ، هل تسمعين هذا الطائر المفرد فى
الغابة ؟

وعند سماعى ، بكيت . لم أستطع اخفاء شعورى
أطول من ذلك . وعندما تكلمت كان ذلك لأعبر عن

رغبة جياشة فى عدم وجودى فى الدنيا أو عدم قدومى
الى ثورنفيلد ابدا .

وكان غنف شعورى الذى حركه الحزن والحب
يكسب السيطرة ويطالب بحق الغزو والكلام .

فقلت :

- احب ثورنفيلد .. احبها لانى عشت فيها
حياة سارة ممتعة .. لفترة وجيزة على الاقل . لم
أعرض لاهانة أو أعامل معاملة سيئة .. لقد تحدثت
وجها لوجه بما أهوى .. مع عقل قوى أصيل .. لقد
عرفتك يا مستر روتشستر ، وأجد أنه شيء فوق
الاحتمال أننى يجب أن أنفصل عنك الى الابد .. انى
أرى أن ضرورة الابتعاد عنك تشبه ضرورة الموت .

- أين تجددين الضرورة ؟

- أنت ، سيدى ، لقد وضعتها أمامى ، فى شكل
عروسك .

- عروسى ! ليس لى عروس !

- ولكنك سيكون لديك .

- أجل ؟ سيكون ؟ سيكون !

وبدا عليه التصميم ، فاجبت متحركة الى شيء

يشبه الهيام :

- اذن ، اقول لك يجب أن اذهب .. هل تظن

أننى أستطيع البقاء لأصبح لا شيء بالنسبة لك ؟ ..

هل تظن أنى آلة بلا شعور ؟ .. هل تظن ، لأنى فقيرة

متواضعة . بسيطة ، صغيرة فانا بلا روح وبلا قلب

.. ان ظنك خاطيء ! واذا كان الله قد أعطانى بعض

الجمال وثروة وفيرة ، لكان من الصعب عليك أن

تتركنى .. ! اننى لا أتكلم اليك الآن بمعايير التقاليد

والعالم .. انها روحى تخاطب روحك ، كما لو كنا

واقفين أمام الله متساويين ، كما يجب أن نكون !

فراقد مستر روتشستر :

- كما يجب أن نكون ! .. هكذا .. ؟ !

ثم اضاف وهو يضمنى بين ذراعيه :

- هكذا ، يا جين !

فاجبت :

- أجل ، هكذا يا سنيدي ، وليس هكذا أيضا ،
لأنك سوف تتزوج من إنسانة لا تستحقك .. واحدة
ليس لديك مشاركة وجدانية معها .. ولا أعتقد
أنك تحبها حقاً . انى أستتشف مثل هذا الزواج .
لذلك فانا أفضل منك .. دعنى أذهب !

- اين يا جين ؟ الى ايرلندا ؟!

- أجل .. الى ايرلندا . لقد قلت ما أعتقد ،
ويمكن أن أذهب الى اى مكان الآن .

- جين ، هدئى من روعك ، لا تصرخى هكذا ،
مثل الطائر البرى .

- أنا لست بطائر . انى بشر حر بازادة مستقلة
هى التى أستخدمها الآن لأتركك .

وأطلقت سراحى بعد جهد آخر .. فقال :

- وارادتك ستقرر مصيرك .. أقدم لك يدي
وقلبى ونصيبا فى كل ما أملك !

سكت ، معتقدة انه يهزا بي •

- هل تشكين فى يا جين ؟

- كلية •

- ألا تثقين فى ؟

- ولا ذرة •

فسال بشئ من الانفعال :

- هل انا كاذب فى نظرك ؟ أيتها الشكاكة

الصغيرة ، سأجعلك تؤمنين بى ! أى حب لدى نحو

مس انجرام ؟ البته .. أى حب لديها نحوى ؟ لقد

خلقت قصة ما لتصلها اخبار بأن ثروتى لا تصل ثلث

ما هو مفروض .. وعندما زرتها لأرى النتيجة ، فكان

برودا منها ومن أمها • اننى لن أتزوج .. لا أستطيع

أن أتزوج مس انجرام • لقد حاولت فقط أن أجعلك

غيورة • أنت .. أحبك كنفسى • أنت .. الفقيرة ،

والمتواضعة والصغيرة والبسيطة كما أنت .. أتضرع

إليك أن تقبلينى زوجا !

بدأت ، مع جديته وخصوصا بلاغته الواضحة
أن أصدق اخلاصه .

— هل حقا تحبني ؟ هل حقا ترغب فى أن أكون
زوجة لك ؟

— اجل ، ومستعد لأقسم بذلك .

— اذن ، سأتزوجك .

فجذبني اليه قائلا :

— اصنعى سعادتى .. وسأصنع سعادتك .

سامحنى يا الله ! لا تدع انسانا يتدخل بيننا .. انها
هديتك لى وسأصونها .

— لا يوجد من يتدخل يا سيدي . فليس لى
أقارب ليتدخلوا .

فقال بصوت هادئ :

— وهذا أفضل ما فى الموضوع . أنا أعرف
أن الله يوافق على ما أفعل . واما بالنسبة لحكم العالم،
فلا أهتم به .

ولكن ماذا حدث لليل ؟ .. فالقمر دخل في
الغيوم ، وزمجرت الريح في الطريق المحفوف بالاشجار
وانبثقت شرارة من السماء تلاها صوت انفجار هائل ،
فقال مستر روتشستر :

- يجب أن ندخل .. فالطقس سيتغير . كنت
أستطيع الجلوس معك حتى الصباح يا جين .

وانهمر المطر كالسيل ، فأخذ يحشني على الاسراع
الى المنزل . وكان ينفض ثوبى من الماء عندما خرجت
مسز فيرفاكس من غرفتها . فبدت شاحبة ، جادة ،
ومندهشة . فابتسمت لها فقط ثم ركضت صاعدة
للطابق العلوى . وفكرت :

- فلتتم التفسيرات فى وقت آخر .

استمرت الفاصفة طوال الليل ، مع برق ورعد
ومطر . وفى الصباح جاءت أديل الصغيرة راكضة
الى حجرتى لتخبرنى أن شجرة كبيرة فى آخر الحديقة
قد صعدت بسبب البرق وانفصل نصفها بعيدا ..

الفصل الثامن والعشرون

الطرحه الممزقة

سيتم زفافنا بهدوء ، فى غضون شهر . اثناء ذلك رغم اعتراض مستر روتشستر ، واصلت العمل كمربية لأدیل ، ورفضت أن أقضى معه أى وقت ، فيما عدا الساعة الاعتيادية بعد العشاء . وقاومت ، أيضا ، رغبته ليشتري لى جواهر وملابس غالية ، وبهذه المناسبة ، تذكرت بأننى ، فى عجلة الاحداث ، قد نسيت - رسالة عمى جون اير الى مسز ريد ، ونيته فى أن يتبنانى ويجعلنى وريثته ، ففكرت :

- حقا كانت ستصبح فرجا . حتى لو كان لى

مبلغ سنوى من المال خاص بى . سأكتب لعمى
واخبره اننى حية لم أمت ، وسأتزوج .
وهذا ما فعلته فى التو .

مضى الشهر .. وكل الاستعدادات ليوم الزفاف
قد تمت . لقد تم ترتيب أمتعتى فى صناديق وأغلقت
ومنتظرة تثبيت بطاقة العنوان التى كتب مسـتر
روتشستر عليها بنفسه اسم « مسز روتشستر » ،
فبعد احتفال الزفاف مباشرة سنغادر الى أوربا .

شعرت بالقلق والاثارة . ولم تجعلنى العجلة
كالمحمومة فى الاستعداد ، ولا فكرة الحياة الجديدة
التي ستبدأ غدا . فهناك سبب ثالث أثر فى عقلى
أكثر من ذلك .

لقد اضطرب عقلى .. لقد حدث شئ لم أستطع
فهمه . لم يعرف أو يرى الحدث الا أنا وحدى .. لقد
حدث فى الليلة السابقة . عندما كان مسـتر روتشسير
غائبا عن البيت فى عمل ما . وانتظرته متطلعة أن يقدم
لى حلا لهذه المشكلة .

وجاء أخيرا ، وأعدوا له طعام العشاء . وقال لي :

- اتخذى مقعدا وشاركينى الطعام يا جين . هذه ،
آخر وجبة ستأكلينها فى ثورنفيلد هول لمدة طويلة .
فجلست بالقرب منه ولكنى قلت له اننى لا
أستطيع الأكل .

- هذا لانك تفكرين فى الرحلة التى أمامك
يا جين ؟ ما هذا اللون الساطع الذى على وجنتيك !
ولم هذا البريق العجيب فى عينيك ! هل أنت بخير ؟
- أظن هذا . أود الا تنتهى هذه الساعة الراهنة
من يدري ماذا يأتى به القدر بعد ذلك ؟

- انك منفعلة جدا يا جين ، ومرهقة أيضا .
امنحينى ثقتك . خفى عن عقلك ما يقلقه مهما كان !

- اذن ، اسمع يا سيدى ، فى الليلة الماضية لم
أستطع النوم بعد ذهابى لفراشى بفترة . كانت
العاصفة نهب ، لكن وراء الضجة التى تحدثها بدا لى
سماع صوت آخر ، مثل صرخة كلب مسعور من

بعيد • وعندما نمت أخيرا شاهدت حلما بأن ثورنفيلد
حول أصبحت حطاما •

— هل هذا كل شيء يا جين ؟

— هذه هي المقدمة يا سيدى • القصة آتية بعد
ذلك • وعندما استيقظت سطح شعاع ضوء فى عيني •
فكرت أنه ضوء النهار ، ولكنى كنت مخطئة • كان لا
يزيد عن ضوء شمعة • فظننت أن الخادمة قد دخلت
وسقط الضوء على المائدة ، وكان باب الخزانة مفتوحا
حيث علقت ، قبل ذهابى للفراش ، ثوب زفافى مع
« الطرحة » ! • • • وسمعت حركة هناك ، وخرج شبح
من الخزانة • • أخذ الضوء ورفعته الى أعلى وتفحص
الملابس المعلقة هناك ، فناديت ثانية ، وكان لا يزال
صامتا • • نهضت من السرير ، وانحنيت الى الامام
غامتلأت بالدهشة ثم جرى دمي باردا • مستر روتشستر
لم تكن الخادمة ، كما لم تكن مسز فيرفاكس • • كلا
لم تكن • • أنا متأكدة من ذلك • كما لم تكن هذه
المرأة الغريبة ، جريس بوول •

فقال سيدى مقاطعا :

– لابد أن تكون واحدة منهن •

– كلا يا سيدى •

– صفيها لى يا جين ••

– انها يا سيدى ، امرأة طويلة ، لها شعر

أسود كثيف منسدل على رقبتها ، وبعد أن التقطت

الطرحة وألقت بها فوق رأسها • ونظرت فى المرأة ،

فرايت انعكاس ملامحها فيها • كان منظرا بشعا ••

غير طبيعى فظا ، شرسا •• ثم نزعت الطرحة ،

يا سيدى ، ومزقتها نصفين وألقت بهما على الأرض

وسحقتهما بقدمها •

– وبعد ذلك ؟

– تحرك شبحها عائدا الى الباب • ثم توقفت

بجانب سريرى تماما ، وأمسكت بالشمعة بالقرب من

وجهى ثم وضعتها تحت عيني •• فرايت وجهها

متوهجا فوق وجهى ، ثم أغمى على • وللمرة الثانية

فى حياتى أفقد وعيى من الرعب !

- من كان معك عندما استرددت وعيك ؟

- لا أحد . وكان ذلك بعد طلوع النهار . .

فنهضت وغسلت رأسي ووجهي بالماء . وبرغم ضعفى فلم أكن مريضة . . لقد احتفظت بهذا السر . . والآن يا سيدى ، قل لى من وماذا كانت هذه المرأة .

- اختراع عقلك المتهيج . هذا أكيد .

- أود لو أقتنع بذلك يا سيدى ، لكن عندما نهضت وتطلعت حولى فى الغرفة ، رأيت الطرحة على السجادة ممزقة من أولها الى آخرها الى نصفين !

أبدى مستر روتشستر علامة اندهاش وقال :

- شكرا لله على أنها كانت الطرحة فقط التى تمزقت ! والآن يا جين ، سأفسر كل هذا . أنه كان نصفه حلم ونصفه حقيقة . لا شك بأن امرأة دخلت غرفتك بالفعل . لا بد أنها جريس بوول . وحصلت فى حالة بين التيقظ والنوم على فكرة زائفة عن مظهرها وتمزيق الطرحة حقيقى . ستسألينى لماذا أحتفظ بمثل

هذه المرأة في منزلى .. عندما نتزوج ويمضى علينا
سنة ، سأخبرك . هل رضيت ؟

فكرت .. فبدأ ذلك الحل الممكن الوحيد ، ولكنى
لم أكن راضية ، وحاولت أن أظهر ذلك ، لارضائه ،
وقال مستر روتشستر :

- يجب أن تنامى في غرفة أدبل الليلة ، اذ لا أحبذ
أن تنامى وحدك ، واغلقى الباب من الداخل . والآن
يا جين ابعدى الأفكار الكثيرة !

ولم أنم الا قليلا ، اذ لم يفارق عقلى الشعور
بالزيف ..

الفصل التاسع والعشرون

ايقاف الزواج

جاءت الخادمة في الصباح التالي لمساعدتي في ارتداء ملابسي . وأخذت وقتا طويلا ، وعندما نزلت كان مستر روتشستر منتظرا بنفاد صبر عند نهاية السلم ، وقال لي انه سيمنحني عشر دقائق فقط لأتناول طعام الافطار . وأمر ، أثناء ذلك ، باحضار الامتعة والعربة الى الباب .

- جيني . هل أنت مستعدة ؟

فنهضت ، لم يكن هناك خسيوف ولا اقارب لنتظرهم . وأسرع مستر روتشستر بي خارج المنزل

ولا زالت أستطيع تذكر الكنيسة القديمة الرمادية خارج بوابات ثورنفيلد تقف شامخة في هدوء أمامي. وسماء الصبح الحمراء من خلقها . ولم أنس أيضا شكل الغريبين وهما يتجولان حول باحة الكنيسة ، واللذين استندارا للمخلف عنقنا رأينا . . لم يلاحظهما مستر روتشستر ، الذي كان ينظر بجدية في وجهي . دخلنا المبنى الهادي ، واتخذنا أماكننا . . والقس والكاتب كانا منتظرين ، وبدأت الطقوس . وتمت قراءة تفسير هدف الزواج وواجباته ، ثم تقدم رجل الدين للامام خطوة ، وانحنى قليلا تجاه مستر روتشستر ، وقال :

- اطالب وانصح كلا منكما ، اذا كان يعرف احدكما أي سبب يجعله لا يصلح قانونا لاتمام مراسم الزواج أن يعترف به الآن .

ثم توقف ، كالمعتاد . . ولم يرفع رجل الدين عينيه من كتابه . . انتظر دقيقة واحدة . وبدأ يسترسل عندما قال صوت قريب :

- لا يمكن أن يتم هذا الزواج .. أننى أعلن عن وجود عقبة !

نظر القس الى المتحدث .. وكان أحد الغريبيين
اللذين لاحظتهما من قبل . تحرك مستر روتشستر
قليلا ، ثم وقف بثبات أكثر وقال :
- استمر .

فكر الصوت من خلفنا :

- يجب إيقاف الطقوس . فلدى الدليل على ما
أقول !

وتردد القس قائلا :

- ما هي نوع العقبة ؟ ربما يمكن تبريرها .

فكانت الإجابة :

- من الصعب .

واستمر المتحدث ناطقا كل كلمة بوضوح وهدوء
وثبات :

• - انها ببساطة بسبب وجود زواج سابق .
مستر روتشستر له زوجة حية .

• نظرت الى مستر روتشستر وجعلته ينظر لى .
• كان وجهه يبدو مثل صخرة لا لون لها .

وكانت عيناه تطلقان شرارا . . وبدون ابتسام
أحاط خاصرته بذراعه وضمنى الى جانبه وسأل
الغريب :

- من أنت ؟

- اسمى بريجز . وأعمل محاميا .

- وتدعى أن لدى زوجة سابقة . . ؟

- أذكرك بوجود الليدى يا سيدى ، التى يعترف
بها القانون ، إذا لم تكن تعترف بها أنت !

- حدثنى عنها . . اسمها ، عائلتها .

- بالتأكيد .

وأخرج مستر بريجز ورقة من جيبه وقراها فى
صوت هادئ :

- « أقر واستطيع اثبات أن ادوارد روتشستر
من ثورنفيلد هول كان متزوجا من أختي بيرثاميسون
فى جامايكا . منذ خمس عشرة سنة ، وتفاصيل
الزواج موجودة فى سجلات الكنيسة هناك . ونسخة
منها فى حوزتى حاليا . توقيع ريتشارد ميسون ، »

- اذا كان هذا الدليل حقيقى ، فقد يثبت بأننى
كنت متزوجا ، ولكنه لا يثبت أن المرأة المذكورة
لا زالت حية .

- كانت حية منذ ثلاثة شهور . ولدى شاهد على
هذه الحقيقة .

- أين هو ؟

- انه حاضر . مستر ميسون تقدم الى هنا من
فضلك .

وعند سماع الاسم طحن مستر روتشستر
أسنانه . وشعرت بحركة غضب أو يأس مفاجئة
تسرى فى جوانبه . وظهر الغريب الثانى الذى بقى

حتى الآن مستترا بوجه شاحب طل من فوق كتفى
المحامي . انه ميسون نفسه . التفت مستر روتشستر
وثبت فيه عينيه . وتحرك ورفع ذراعه القوية . . كان
على وشك أن يضرب ميسون ، ويلقيه على أرض
الكنيسة ، ولكن الرجل تراجع الى الخلف مرتعدا وهو
يصرخ بشكل ضعيف .

وقال القس :

— سيدى ، لا تنس انك فى مكان مقدس .

ثم خاطب ميسون مستفسرا بلطف :

— هل تعرف يا سيدى ، اذا كانت زوجة هذا
السيد مازالت حية .

فقال ميسون فى صوت منخفض متردد :

— انها تعيش الآن فى ثورنفيلد هول . لقد
رايتها هناك فى شهر ابريل الماضى .

فاستفسر رجل الدين :

- فى ثورنفيلد هول • مستحيل ! لقد عشت
سنوات عديدة فى هذه المنطقة ، يا سيدى ، ولم أسمع
ابدا عن مسز ثورنفيلد هناك •

فرايت ابتسامة مرة لوت شفتى مستر روتشستر
وقال من بين أسنانه :

- كلا ، بالله ! لقد حرصت على ألا يسمع أحد
بهذا الاسم •

وظل صامتا لبضع دقائق ، ثم استمر قائلا :

- كفى ! كل شىء سيكشف النقاب عنه • اطو
كتابك • لن يتم زفاف اليوم

وبدا مستر روتشستر قصته ..

الفصل الثلاثون

قصة مستر روتشستر

اننى حاليا افضل قليلا من الشيطان ، وأستحق بدون شك أقصى أحكام الله . . أيها السادة الأفاضل، ان خطتى تحطمت . . فما قاله هذا المحامي وشاهده حقيقى . ورجل الدين هنا ، يقول أنه لم يسمع أبدا عن سيدة تدعى مسز روتشستر فى الهول . ولكنى اعتقد انه استمع من حين لآخر عن المرأة الغامضة المتحفظ عليها بالقفل والمفتاح . .

أعلنكم الآن أنها زوجتى ، أخت هذا الشخص المقدام ، بوجهه الابيض ، وجسده المرتعش . بيرثا

ميسون مجنونة ، وجاءت من عائلة مجنونة ، ضعيفة العقل وعنيفة .

كانت أمها امرأة مجنونة وسكيرة الى حد الادمان .. كما اكتشفت بعد زواجي من الابنة ، لانهم كانوا كتومين على أسرار العائلة قبل ذلك . وبيرثا نسخة من أمها .. نسخة مطابقة تماما ..

كان أبي هو الملام على ذلك . لم أكن الابن الأكبر كان لدى أخ أكبر مني .. ولم يكن أبي رجلا كريما ولم يكن يحتمل فكرة تقسيم ممتلكاته حتى يترك لي نصيبا عادلا ، فقرر أن يؤول كل شيء الى أخى الأكبر . ولكنه لم يحتمل أن يترك ابنا له فقيرا معدما ، لذا لابد من أن يكفل لي زواجا ثريا ..

وكان مستر ميسون تاجرا في جزر الهند الغربية وكان معروفا لأبى منذ مدة طويلة .. وكان لهذا التاجر ابن وبنت ، وعلم والدى بأنه سيهب ابنته ثروة تقدر بثلاثين ألف جنيه ، وكانت كافية لأبى . وعندما تركت الكلية ، أرسلنى الى جامايكا ، لأتزوج

عروسا قد تم اختيارها لى من قبل . ولم يقل أبى شيئا عن مالها ، لكنه قال لى بأن مس ميسون عروس من مدينة أسبانية يقدمها لى لجمالها وهذا لم يكن كذبا . . وجدتھا فتاة جميلة من نمط بلانش انجرام . وقدموها لى فى الحفلات فى أفخم ملابس . ولم أرھا بمفردها الا نادرا ولم اتحدث معها بشكل خاص الا قليلا . وكان جميع الرجال يبدون اعجابهم بها ويحسدوننى . فانجذبت ، ولما كنت غرا صغيرا ، اعتقدت أنى أحببتها . وشجعنى اقرباؤها ، وجعل المنافسون منى غيورا . وتمت مراسيم الزواج تقريبا قبل أن أعلم بها .

وفيما بعد اتضح لى الحقيقة كاملة . . وتحول جمال زوجتى الى فظاظة . وتطورت نقاط ضعفها الى أسوأ حالاتها . . أثناء ذلك توفيت والدتى وبعد أربع سنوات مات والدى أيضا . . وأنا ثرى الآن ، ولكن أفقر من العبيد فى عالم السعادة !

أحضرت زوجتى الى انجلترا . وكانت رحلة

رهيبة مع مثل هذه المخلوقة على السفينة . فاستأجرت جريس بوول التي كانت تعمل فى مستشفى للأمراض العقلية لمراقبتها . فهى والطبيب كارتر كانا الوحيدين اللذين يعرفان سرى ، حتى مسز فيرفاكس قد تشك فى بعض الاشياء لكنها ليست على علم بالحقائق . وأثبتت جريس ، بصفة عامة أنها حارسة جيدة ، برغم أنها بسبب ميلها للشرب أحيانا سمحت لمريضتها بالافلات مرة أو مرتين .

ولكن أيها السادة الأفاضل ، لا أدين لكم بتفسير أكثر من ذلك ، انما أدعوكم لتأتوا الى المنزل وتزوروا مريضة مسز بوول .. زوجتى !

واستمر قائلا وهو ينظر الى :

— وهذه الفتاة ، لا تعرف شيئا عن هذا السر المقزز . لقد ظننت ان كل شئ سليم وقانونى . تعالوا جميعكم .. اتبعونى !

وترك الكنييسة وهو لا يزال ممسكا بى بقوة، وجاء

الرجال الثلاثة من بعدنا • وعند الباب الأمامي للهول.
وجدنا العربية •

فقال مستر دوتشستر لسائقها :

- عد بها الى الاسطبل •• فلن نحتاج لها
اليوم •

وعندما دخلنا ، تقدمت مسز فيرفاكس واديل
والخدم لتحيّتنا •

فصاح السيد

- ابعدوا بتهانيكم ! من يريد لها ؟ لست أنا !
انها متأخرة خمسة عشرة عاما •

واستمر في سيره ، وصعد السلم الى الطابق
الثالث • وفتح بمفتاحه الباب الاسود الصغير ، وسمح
لنا بالدخول الى الغرفة التي كان ميسون راقدا فيها
جريحا منذ فترة ، ثم فتح الباب الداخلي ، ودخلنا •
وفي غرفة بدون نوافذ ومدفأة تشتعل محمية
بقضبان قوية عالية ، ومصباح يتدلى من السقف

بواسطة سلسلة ، كانت جريس بوول تنحنى فوق
الموقد تطبخ شيئا فى وعاء . وفى الظل المبهم عند
أبعد طرف للغرفة كان هناك شيء يركض ذهابا وإيابا
.. ماذا كان ذلك ، حيوان أم بشر لا يستطيع أحد أن
يقول من أول نظرة .. انها تزحف ، على ما يبدو ، فوق
البلاط ، وتصدر ضجيجا شبه حيوانى غريب ، ولكنها
كانت مغطاة بالملابس وكمية من الشعر الاشيب يخفى
وجهها ورأسها .

وقال مستر رتشستر :

- صباح الخير مسز بوول . كيف حال مريضتك
اليوم ؟

فاجابت جريس وهى ترفع الوعاء الذى يفلئ
بحرص من فوق النار :

- متوسطة الحال ، سيدى .

وأوحت صرخة شرسة بأن هذا التقرير خاطئ .
فالحيوان المغطى بالملابس نهض واقفا .

فقلت جريس :

— آه ، يا سيدى ، انها تراك ! من الافضل الا
تبقى خذ حذرك بالله عليك !

وزمجرت المرأة المجنونة ، ودفعت بشعرها
المشوش من على وجهها وأخذت تحملق بوحشية فى
زوارها .. وتذكرت تلك الملامح الفظة .. وتقدمت
مسز بوول .

فقال مستر روتشستر :

— ابعدى عن الطريق . فليس لديها سكينها الآن
على ما أظن ، أنا أراقبها .

فصاحت جريس :

— انتبه !

وتحرك السادة الرجال الى الخلف مسرعين .
ودفعنى مستر روتشستر خلفه . وقفزت المرأة

المجنونة وقبضت عليه من حلقه بشراسة ووضعت
اسنانها في جانب وجهه . وتصارعا . كانت امرأة
كبيرة الحجم وطولها يكاد يتساوى مع زوجها وقوية
في نفس الوقت . كان يمكنه أن يخمد بها بضربة
مسددة جيدا ، لكنه لم يضربها . وأخيرا أمسك بذراعيها
وربطها في الكرسي ببعض الحبال . تمت العملية
بصرخات متوحشة من المرأة المجنونة . والتفت مستر
وتشستر عندئذ الى الرجال الذين كانوا يراقبون
بابتسامة لعلها مرة ويائسة ، وقال :

- هذه زوجتى !

ثم أضاف ، واضعا يده على كتفى :

- وهذه من وددت أن تكون زوجتى . ههههه
الفتاة الصغيرة التى تقف بهذا السكون والهدوء .
انظروا الى الفارق ، ثم احكموا على اذا استطعتم !
غادرنا جميعا الغرفة ما عدا مستر روتشستر ،

الذى تخلف قليلا ليعطى بعض التعليمات لجريس بوول
وثناء نزولنا السلم قال لى المحامى :

- انك ، يا سيدتى ، بعيدة عن كل لوم .
وسيسعد عمك سماع ذلك .. اذا كان ، فى الحقيقة ،
لا يزال حيا .

- عمى ! هل تعرفه .

- مستر ميسون يعرفه . لقد ظل مستر اير
وكيل أعماله بجزيرة ماديرا (★) لعدد من السنين .
وعندما استلم عمك رسالتك التى ذكرت فيها قرب
زواجك من مستر روتشستر ، تصادف وكان مستر
ميسون عنده ، فأخبره مستر اير بالخبر ، عندما
علم بأن مستر ميسون يعرف مستر روتشستر .
والدهش مستر ميسون واضطرب ، وأحاطه علما
ببواطن الأمور . وأما عمك ، الذى ، وآسف لأقول ،

(★) الجزيرة الرئيسية لمجموعة صغيرة من الجزر فى الشمال
الغربى من افريقيا .

مريض جدا حاليا ، ومن غير المحتمل أن يشفى ، لم
يستطع الاسراع بالقدوم الى انجلترا بنفسه لانقاذك
من الشرك الذى وقعت فيه، ولكنه توصل لمستر ميسون
أن يعود هنا فى الحال ويحاول ايقاف هذا الزواج
الباطل ، وطلب منى أن أساعد مستر ميسون .

واذا لم أكن متأكدا من أن عمك سينتقل الى
العالم الآخر قبل أن تستطيع الوصول لماديرا ، لكنت
نصحتك بالذهاب الى هناك مع مستر ميسون . وما
أعتقد أنه أفضل هو أن تبقى فى انجلترا الى أن يصلك
مزيد من الاخبار سواء من مستر اير نفسه أو منى .

ثم سأل مستر ميسون :

— هل لدينا شيء آخر لنبقى من أجله ؟

فكانت الاجابة القلقة :

— كلا ، كلا . . . فلنذهب !

وذهبا من الباب الامامى بدون انتظار للتحدث

مع مستر روتشستر .

وقفت عند باب غرفتي المفتوح قليلا ، حيث عدت اليها الآن ، ثم حبست نفسي داخلها واغلقت الباب بالمفتاح ، وبدأت - لا أبكي ، لانني كنت لازلت هادئة لافعل ذلك - بل لأخلع ثوب الزفاف وأعود الى الثوب البسيط الذي كنت أرتديه في اليوم السابق .. وكنت أعتقد أنها آخر مرة . ثم جلست وأنا أشعر بالضعف والتعب .. وأسندت ذراعي على المائدة فسقط رأسي عليهما .

ان جين اير التي كانت فتاة سعيدة شغوفة .. والتي كادت أن تصبح عروسا ، أصبحت وحيدة باردة مرة أخرى .. وماتت كل آمالها .. لا يمكن وصف هذه الساعة المريرة : في الحقيقة لقد سقطت في مياه عميقة وغطتني الفيضانات .. !

الفصل الحادى والثلاثون

هروب

وفى وقت ما من بعد الظهر ، رفعت راسى وتطلعت
حولى وسألت نفسى :

– ماذا على أن افعل ؟

وكانت الاجابة التى اعطاها عقل :

– اتركى ثورنفيلد فى الحال !!

وكانت سريعة جدا ، مزعجة جدا لدرجة أننى
أغلقت أذنى ازاءها .. لم أكن أستطيع فعل ذلك ..
ولكن صوتا داخلى قال بأن فى امكانى ان أذهب ..

بل ويجب .. وصارعت بكل عزيمة . وتعارك الضمير
مع العاطفة ، حتى تعبت من معاناة العقل ، وضعفت من
الجوع ، فاستغرقت في النوم !

كان الوقت بعد منتصف الليل عندما نهضت ،
ولم آخذ شيئا معي سوى محفظتي وصرة صغيرة ،
وخرجت من غرفتي بهدوء .. كنت سامر على غرفة
مستر روتشستر بدون توقف ، ولكن قلبي توقف
للحظة عن دقاته ، وتسمرت قدماي أيضا عند بابه .
وسمعه يمشي هائما قلقا في الداخل .. سيبحث لي
في الصباح .. ساكون قد رحلت .. قد يعاني ،
وربما يفرق في اليأس .. فترددت ، ثم تحركت .

وحصلت من المطبخ على بعض الماء والخبز .
وبدون صوت فتحت الباب ومرقت للخارج . وبعد
ميل وراء الحقول كان يقع الطريق الممتد في الاتجاه
المعاكس لميلكوت ، وهو طريق لم أسلكه مطلقا لكن
لاحظته من قبل . فوجهت خطواتي تجاهه .

وأخذت أكد في السير ، وكاد أن ينتهي ليل

الصيف القصير ، وبدأت الطيور تغرد في الشجيرات .
كانت الطيور مخلصه لحبها . وأنا ؟ كنت كارهة لنفسى
ولازلت لا أقدر على الرجوع . . لا بد أن الله هو الذى
يقودنى . . انى ابكى بحرقة وأنا أمشى فى طريقى
بسرعة ، بسرعة كواحدة فقدت عقلها . وفى النهاية
استوى على ضعف وسقطت . .

رقدت على الأرض لعدة دقائق . لقد كان لدى
خوف . . أو أمل فى أن أموت ، ولكنى نهضت ثانية
بنفس عزيمتى لأصل للطريق . .

وعندما وصلت هناك ، سمعت عجلات ، ورايت
عربة قادمة . أوقفتها وطلبت أن أركب إلى المكان الذى
يمكن أن تكون أجرته الجنيه الوحيد الذى فى
محفظتى . .

ودخلت الى العربة . . التى انطلقت مرة أخرى
فى طريقها . .

الفصل الثانى والثلاثون

اليأس

كان مساء اليوم التالى ، عندما انزلتنى العربة
فى مكان يلتقى فيه أربعة طرق • وانطلقت العربة بعد
نزولى ، واصبحت تبعد ميلا الآن •• وأنا وحيدة ••
وفى هذه اللحظة اكتشفت انى نسيت أن آخذ صرتى
من العربة • ولم يبق لى شىء فى الدنيا !

وانبأتنى اشارة البريد أن اقرب بلدة تقع على
بعد عشرة أميال • وفى الخلف كانت توجد تلال
عظيمة • كما توجد بعد ذلك سلسلة من الجبال خلف



الوادي العميق الذي يظهر تحت قدمي . ولم أر أي
مسافر على الطريق .

ماذا علي أن أفعل ؟ أين يجب أن أذهب؟ تحسست
العشب ، فكان جافا ولا يزال دافئا من حرارة الشمس .
وكانت السماء صافية ، ولا توجد ريح . سيكون
الليلة ضيفة للطبيعة : قد تأويني بلا مقابل . وكانت
معي قطعة خبز باقية ، فجمعت حفنة من التوت البري
وأكلتها مع الخبز . . . ونلت بعض الراحة تلك الليلة
ولكنني كنت مسحوقة بقلب حزين .

وفي اليوم التالي سلكت طريقا يبعدني عن
الشمس الحارة . . . كنت ضعيفة متعبة تماما عندما
سمعت أخيرا قرع جرس . . . جرس كنيسة . . . لا بد
أنني قريبة من حياة بشرية . وبعد قليل دخلت قرية .
وفي نهاية أحد شوارعها كان يوجد محل به خبز
ظاهر في واجهته .

دخلت المحل ، حيث كانت امرأة تقف فيه .
فلما رأتني جاءتنى بأدب مخدوعة بطريقة لبسي

المحترمة ... كيف ستؤدى لى مطلبى ؟ لقد استولى
على الحجل .. فليس معى نقود على الاطلاق . وانعقد
لسانى عن مطلبى للطعام الذى نويت أن أنطقه ،
فرجوتها الاذن بالجلوس دقيقة ، فلما خاب ظنها
أشارت ببرود الى كرسى .

وبعد برهة سألتها اذا كانت توجد خياطة
بالقرية .

- أجل ، هناك اثنتان أو ثلاث . وهذا يكفى .

- هل تعرفين أى مكان فى المنطقة يحتاجون فيه
الى خادمة ؟

- كلا ، لا أعرف .

وواصلت حديثى معها قليلا ، ولكنها أظهرت
ضيقها من أسئلتى . وأخيرا أخرجت منديلى وسألتها
اذا كانت تعطينى رغيفا مقابله . فنظرت اليه فى شك
فورى وقالت :

- كلا ، انا لا أبيع مطلقا بهذه الطريقة . من
يدربنى من أين أتيت به ؟

غالباً ما يكون الشحاذ العادى عرضة للريبة ،
أما الشحاذ حسن الهندام فهو دائماً محل ريبة ، ولم
أعتب على المرأة • وتركت القرية فى ياس • وتسولت
بقية اليوم ، ولكن بلا جدوى •

وقضيت الليلة فى غابة • كانت رطبة ، وعند
الصباح أمطرت ، وهكذا مضى يوم آخر ، وبدأت
أتمنى الموت • وعند نهاية اليوم التالى ، رأيت ضوءاً
خافتاً عن بعد ، فجررت جسدى المكدود ببطء فى
اتجاهه ، فامكننى رؤية بوابة بيضاء فى الظلام
النامى ••• مررت منها فأتيت الى نافذة مطبخ • كانت
هناك شمعة تحترق على المائدة ، وكانت امرأة عجوز
ذات منظر خشن ، ولكنها نظيفة جداً تقوم بأعمال
الخيطة بجانب الضوء •

وظهرت بالقرب من المدفأة فتأتان جميلتان بمعنى
الكلمة • واحدة كانت جالسة على كرسى ذى مساند ،
والأخرى على مقعد أكثر انخفاضاً • وكانت كلتاهما فى
ملابس سوداء • وكان هناك كلب عجوز ضخم يريح
رأسه على ركبة إحدى الفتاتين • وكانت الفتاة الأخرى
تملس على فراء قطعة سوداء •

كان هذا المطبخ المتواضع مكانا غريبا على مثلثيهما !
من هما ؟ .. لم أر مثل هذين الوجهين فى أى مكان ،
ومع ذلك ، عندما أطلت بصرى فيهما بدت ملامحهما
مألوفة لدى .. كانتا شاحبتين وعليهما سمات التفكير ،
وكل واحدة تنحنى فوق كتاب ، بينما يوجد على الأرض
بجانبيهما كتابان كبيران آخران يرجعان اليهما من وقت
لآخر : لابد أنهما قاموسان ليساعدهما فى عمل
الترجمة .

راقبتهما لفترة طويلة . وبدأت المرأة العجوز
أخيرا تجهز الطعام . فذهبت الى الباب وطرقته .
ففتحته ، واستفسرت فى صوت مندهش .

- ماذا تريدين ؟

- هل لى أن اتكلم مع أصحاب البيت ؟

- من الأفضل أن تقولى لى ما تريدان أن تقولىه

لهم . من أين أنت ؟

- اننى غريبة .

- وما شغلك هنا فى هذه الساعة ؟

- اننى اريد ماوى ليلة فى ركن ما ، وكسرة
خبر اسد بها رمقى .

الريبة .. الاحساس الذى كنت أخشاه ، ظهر
على وجه المرأة . فقالت بعد فترة صمت :

- ساعطيك قطعة خبز ، ولكننا لا نستطيع أن
ناخذ متسكعة لتنام عندنا .

- أين سأذهب ، اذا طردتيني ؟

- اتوقع انك تعرفين أين تذهبين . ها هو
بنس . هيا تحركى .

وهنا أغلقت الخادم الباب وأرتجته من الداخل .
وكانت هذه هى الطامة الكبرى .. لم أستطع أن أذهب
بضعفى خطوة أخرى ، فانهرت خارج الباب وبكيت ..
ثم قلت بصوت مسموع :

- ليس أمامى الا أن أموت . فلانتظر ارادة الله
فى سكون .

فقال صوت قريب منى تماما :

- جميع البشر حتما سيموتون .

فسالت خاتمة من الصوت المفاجيء :

- من يتكلم ؟

وطرق القادم الجديد بقوة على الباب ، فصرخت الخادم :

- هل هذا أنت يا مستر سانت جون ؟

- أجل ، أجل . افتحي بسرعة يا حنا !

- حسن . لابد انك مبتل ويلسعك البرد في ليلة كهذه ! ادخل . أن أختيك قلقتان عليك . كانت توجد امرأة متسولة . أعتقد أنها لم تذهب بعد . انهضى ، يا للعار !

- اسكتى يا حنا . لقد قمت بواجبك ، والآن دعينى أقوم بواجبى .. أعتقد أنها حالة خاصة .

والتفت الى وقال لى أن أمر أمامه داخل المنزل . فاطمته بصعوبة . وفى التوكنت فى ذلك المطبخ النظيف البراق ، وجميع العائلة تتطلع الى .. وبدأ رأسى يدور : وسقطت ، ولكن على كرسى . وكسرت احدى الأختين قطعة خبز وغمسستها فى الحليب ، ووضعتها

فى شفتى • كان فى وجهها شفقة • تذوقت ما قدم لى
بضعف فى الاول ، ثم بتلهف أكثر •

- كفى حاليا ، ديانا • ليست عندها قوة :
فسيوذيتها • حاولى اذا أمكنها الكلام الآن • اسألها
عن اسمها •

فاجبت :

- اسمى جين اليوت •
كنت أخشى أن يعرفوا اسمى الحقيقى •
- أين تسكنين ؟ أين أصدقاؤك •
كنت صامتة ..

- هل يمكنك أن تبعثى لأحد تعرفينه ؟

فهزرت برأسى .. ولا أدرى كيف بعد أن
دخلت هذا المنزل وواجهت أصحابه ، لم أعد أشعر
بالمسكعة التى لا تنتمى لأى مكان ... لم أعد أشعر
بالمسولة ، وبدأ سلوكى الطبيعى يعود الى ، وعندما
طلب مستر سانت جون بيانات عنى ، قلت بعد
هنيهة :

- سيدى ، لا أستطيع أن اعطيك أية تفاصيل
الليلة !

- اذن ماذا ، تتوقعين منى أن أفعله لك ؟

- لا شيء !

ان قوتى لا تسمح الا بالاجابات المختصرة ،
وتكلمت الآن ديانا :

- هل تقصدين أنك أخذت المساعدة التى
تحتاجينها ، واننا نصرفك الى حيث الليل والمطر ؟

تطلعت اليها . اعتقد أن لها وجها غير عادى معبر
عن القوة والطيبة . وتحصنت بشجاعة فجائية .

واجبت نظرتها المتعاطفة بابتسامة ، وقلت :

- سائق فيك . لو كنت كلبه بلا ماوى وبلا
صاحب ، اعرف انك لن تصرفينى فى مثل هذه الليلة .

فليس لدى خوف . افعلى بى ما نشائين ، ولكن
اعذرينى عن الكلام الكثير . . يؤلمنى استخدام صوتى .

ونظر الى ثلاثتهم فى صمت ، وقال مستر سانه

جون اخيرا :

- حنا .. دعيها تجلس هنا ، حاليا ، ولا تسألها
مزيدها من الأسئلة . وبعد عشر دقائق أعطيها بقية
الخبر مع الحليب . ماري وديانا ، فلنذهب الى غرفة
الجلوس لنتشاور في الموضوع .

وذهبوا . وعادت احدي الفتاتين في الحال وأعطت
بعض التعليمات لحنا .. وبعد قليل ساعدوني لصعود
السلم الى فراش جاف دافئ . وشكرت الله ، واستغرقت
في النوم ، وغصت في شعور دافئ من السعادة .. !

الفصل الثالث والثلاثون

عائلة ويفرز

وكانت ذكرى الأيام الثلاثة التالية لذلك باهتة جدا فى عقلى • علما بأنى كنت فى غرفة صغيرة وفى فراش ضيق ، ولاحظت دخول وخروج كل من دخل أو خرج •• وكنت أدرك ما يقال عندما يكون الشخص بجانبى ، ولكن كان من المستحيل على أن أفتح شفتى أو أحرك أى جزء من جسمى •

كانت حنا أكثر من تردد على •• شعرت أنها متحيزة ضدى • وظهرت ديانا ومارى مرة أو مرتين فى اليوم • تنهامسان بجانب فراشى وتعبران عن

فضولهما عن اكون ، وفرحتهما بأنهما لم يفشلا في
منحى الماوى .. ولم أسمع في محادثتهما أبدا كلمة
أسف على عطفهما الذى أصبغاه على ، أو كلمة شك أو
كراهية لى .

جاء مستر سانت جون مرة واحدة فقط . تطلع
الى وقال ان حالة ضعفى كانت نتيجة ارهاق شديد
ومستمرة . وقال انه لا داعى لطلب الطبيب . وسمعت
منه هذه الآراء يقولها فى كلمات قليلة بصوت هادئ
منخفض :

— ستعمل الطبيعة أفضل اذا تركناها ولم نتدخل
فيها .. فالفتاة ليست مريضة ..

ووقف يلاحظنى لبضع دقائق ثم اضاف :

— يبدو أنها حساسة ، ولكنها ليست حسنة
المنظر !

وفى اليوم الثالث تحسنت ، وفى الرابع
استطعت الكلام ، والحركة ، والجلوس فى السرير

والالتفات • وبدأت أحس بالجوع • وعندما وجدت ،
بعد الظهر ، على كرسى بجوارى جميع ملابسى نظيفة من
الوحل الذى كان قد علق بها من أثر تسكعى وتجوالى
حسب رأى حنا ، ونجحت بصعوبة فى ارتدائها • ومع
شعورى بتمتعى بالاحترام مرة أخرى ، تسللت هابطة
بعض السلام الحجرية وسلكت طريقى الى المطبخ •
كانت حنا تخبز • وعندما رأتنى قادمة مرتبة
وحسنة الھندام ، بدا عليها الرضا ، بل وابتمست ،
وقالت :

- حسن ، لقد نهضت ، انك أفضل اذن •
يمكنك أن تجلسى على كرسى بجانب المدفأة ، اذا
رغبت •

وأخذت تتحرك فى انشغال وتنفحصنى من حين
لآخر من زاوية عينها •

والتفتت الى وهى تأخذ بعض الخبز من الفرن ،
وقالت :

- هل كنت تتسولين قبل أن تأتي الى هنا ؟
تضايقت للحظة ، ولكنى تذكرت كيف ظهرت لها
فى البداية ، فاجبت بهوء لكن بحزم :
- انك مخطئة فى اعتقادك أنى متسولة • اننى
مثلكم •

فقالت بعد فترة صمت :
- انى لا أفهم • ليس لك بيت ولا مال ، على
ما أظن ؟
- عدم وجود البيت والمال لا يجعلنى متسولة
بمعنى كلمتك •

فسألت فيما بعد :
- هل أنت متعلمة ؟
- أجل •

ففتحت عينيها تماما وقالت :
- اذن ، لماذا لا تعملين ؟

- كنت أعمل ، وأمل اننى سأعمل ثانية .
والآن لا تقلقى على ما كنت عليه ، ولكن اخبرينى باسم
العائلة التى تعملين لديها ..

- اسمها عائلة ريفرز .

- هل السيد يعيش هنا ؟

- كلا ، انه باق لفترة قصيرة . انه رجل دين
ويعمل فى مورتون على بعد أميال قليلة .

- هل مات والدهم ؟

- أجل منذ ثلاثة أسابيع .

- أين أمهم ؟

- لقد ماتت منذ سنين عديدة . وأنا أعمل هنا
مدة ثلاثين سنة .. ورعيت ثلاثتهم ..

- هذا يثبت أنك كنت شريفة ومخلصة . انى
امتدحك ، رغم أنك نأديتنى بالمتسولة ورفضت
مساعدتى عندما كنت فى محنة .

فرمقتنى بنظرة اندهاش وقالت :

— اعتقد اننى كنت مخطئة ، لا يجب أن تفكرى
فى بسوء .

فواصلت حديثى بطريقة اشد قائلة :

— لكنى أفكر بسوء فيك . لا لأنك منعتنى من
الماوى ، ولكن لأنك وصمتنى بالفقر . . لا يجب أن
تعتبرى الفقر جريمة !

فقالت :

— هذا حق . مستر سانت جون قال لى ذلك ،
أيضا . أدرك اننى كنت مخطئة .

— اننى أسامحك ، فلنتصافح .

فقدمت لى يدها الخشنة وابتسمت . وأصبحنا
من تلك اللحظة أصدقاء .

كانت حنا محدثة عظيمة ، فائناء قيامها بعملها ،
قالت لى تاريخ عائلة ريفرز :

كان والدهم من عائلة طيبة ، فقد ثروة كبيرة
لثقته في رجل أساء له النصيح . ولما كان لا يستطيع
مساعدة ابنتيه ، عملتا كمربيتين . وهما الآن في
البيت لبضعة أسابيع بسبب وفاة والدهما . ومع
جمع الشمل في منزلهما كانت سعادتهما العظيمة .

وبعد قليل عادت الفتاتان حيث كانتا في جولة
بمورتون ، وكان معهما أخوهما . وعندما رآنى مستر
سانت جون ، انحنى ثم مر من المطبخ ، أما الأختان فقد
وقفتا وعبرت ماري بهدوء عن فرحها لرؤيتى أستطيع
النزول . وأخذت ديانا يدي وهزت رأسها وقالت :

— كان يجب أن تنتظري أن أسمع لك بالنزول .
فأنت مازلت شاحبة . ولماذا أنت هنا ؟ نحن نجلس
في المطبخ أحيانا لاننا نحب أن نكون على حريتنا ،
ولكنك ضيفة ، ويجب أن تذهبي الى غرفة الجلوس .

كانت لا تزال ممسكة بيدي ، فانهضتى
وقادتني الى الغرفة الداخلية . وأغلقت الباب ،

وتركتنى بمفردى مع مستر سانت جون ، الذى كان
يجلس أمامى يقرأ فتفحصته هو والغرفة معا .

كانت غرفة صغيرة نوعا ما مع أثاث كثير ، كله
قديم لكن معتنى به . أما مستر سانت جون الذى لا
يتحرك كالحجر ، فكان صغيرا ، ربما كان فى الثامنة
والعشرين أو الثلاثين وله ملامح نقية واضحة . . كانت
عيناه زرقاوين ، وجبينه كان مرتفعا لا لون له ،
وشعره أشقر . لا يعطى احساسا بالركة ولكن بالقوة
الخفية . . لم يتكلم كلمة واحدة معى الى أن عادت
أختاه ومعهما الشاى .

فأكلت بشغف ، وأغلق مستر ريفرز كتابه ووجه
بصره الى وقال :

— انك جائعة جدا .

فكانت اجابتي المرتبكة :

— لن أكل طويلا على حسابك يا سيدى

فقال ببرود :

— كلا . عندما تخبرينا بعنوان أصدقائك
سنكتب لهم ويمكنك أن تعودى لهم .

— يجب أن أقول لك بصراحة أن هذا مستحيل .

فنظر الى ثلاثتهم لا بريية ولكن بفضول . .
وبدت عينا سانت جون غير قادرتين على التعبير عن
أفكاره هو بل تبحث عن أفكار الآخرين .

— هل تقصدين أن تقولى بأنك بدون عائلة

تماما ؟

— ليس لي ما يربطني بأى انسان حى فى

انجلترا كلها

ونظر بسرعة الى يدي قبل أن يتكلم :

— انك غير متزوجة ؟

وعندما أجبت على ذلك ، احساست بوجهي
يحترق . فراوا جميعهم ارتباكى . أراحتنى ديانا
ومارى بادارة عيونهما الى اتجاه آخر ، ولكن أخاهما كان

أبرد وأقصى فاستمر في تثبيت عينيه على وسالتي :
- اين كنت تعيشين .

فتمتتم ماري في صوت منخفض :

- انك فضولى جدا يا سانت جون .

فاجبت باقتضاب :

- هذا سرى .

فعلقت ديانا قائلة :

- الذى ، فى رأى من حقا أن تحتفظى به اذا

أردت .

فقال :

- اذا لم أعرف شيئا عنك وعن تاريخك ، فلا

أستطيع مساعدتك . وأنت تحتاجين الى مساعدة ،

أليس كذلك ؟

- انى احتاج مساعدة من شخص طيب فى ايجاد

عمل لى يمكننى أن أقوم به ، ويساعدنى على المعيشة .

- أخبرينى اذن ، ما تستطيعين عمله .

فقلت ملتفتة له وانا اطلع اليه بوضوح :

- مستر ريفرز . لقد قدمتم لى خدمة جليلة فلکم حق على ، لا أن أشکرکم فقط ولكن أن أولیکم ثقتی أيضا . سأقول لکم عن نفسی قدر ما لا یزعج سلامتی وراحة بالی . . اننی یتیمہ ، تعلمت فی مدرسة لوود . وغادرتها منذ سنة لأصبح مربیة واضطرت أن أترك وضعی لسبب لا أستطیع شرحه حالیا . ولم یکن علی أی لوم . ومع تفکیری فی الخلاص بسرعة وبتکتم مع حالتي العقلیة المشوشة نسیت أن آخذ من العربیة التي سافرت فیها أمتعتی القلیلة التي استطعت احضارها معی . . وهكذا وجدت نفسی عاجزة ومنهارة القوى ، الی أن أخذتني وأکرمت وفادتني .

فقالت ديانا عندما سکت برهة :

- لا تجعلها تتکلم أكثر من ذلك ، سانت جون ، انها لیست معدة للاثارة بعد . تعالی بجوار المدفأة واجلسی یامس الیوت .

فجفلت مندهشة • لقد نسيت اسمى الجديد •
فلاحظ مستر ريفرز ذلك فوراً وكأنه لا تغيب عنه
غائبة • وقال :

- لقد قلت ان اسمك جين اليوت ؟
- لقد قلت ذلك ، وهذا هو الاسم الذى اعتقد
من الحكمة ان اسمى به حالياً •
- الا تحبين ان تكونى ضيفتنا لمدة طويلة ؟
- كل ما اطلبه هو ان تساعدنى فى الحصول
على عمل • واسمحوا لى ان ابقى هنا حتى ذلك الحين •
واخشى ان اعود بلا مأوى ثانية •

فقالت ديانا :

- بالتأكيد ، ستبقين هنا •

وكررت مارى ايضا :

- اجل ستبقين •

فقال مستر سان جون :

- ان أختى كما ترين يسعدهما بقاؤك . وأنا
أفضل أن أهيم لك وضعا ليساعدك على المعيشة ،
وسأحاول ذلك .. ولكنى أعمل فى منطقة فقيرة ،
ولذلك ستكون مساعدتى من النوع المتواضع .

فكررت استعدادى لقبول أية وسيلة للعمل
يقدمها لى ، وبعد ذلك صعدت الى الحجرة المخصصة لى
مرة أخرى ، حيث كادت قوتى أن تنهار ثانية ..

الفصل الرابع والثلاثون

ديانا ومارى وسانت جون

عندما زادت معرفتى بديانا ومارى ، أحببتهما أكثر . واسترددت صحتى بعد أيام قليلة . . حتى انى استطعت أن أبقي متيقظة طول اليوم ، وأخرج لأتمشى أحيانا . وأشارك الأختين فى كل ما يعملانه . وبذلك استمتعت لأول مرة بالسعادة الناجمة عن الاتفاسق التام فى الذوق والأحاسيس والأفكار .

كانتا تحبان منزلهما والريف البرى الذى حوله .
وانا أيضا تعلمت بسرعة لأحس بالانجذاب للمكان .

وكنا نتفق فى الانشطة البيتية • فانا احب ان اقرا
ما تحبانه •

كانتا اكثر منى ثقافة وتعلما • ولكنى تابعت
بشغف الطريق الذى سلكته فى المعرفة • وعرضت
ديانا على ان تعلمنى اللغة الالمانية ، وانا بدورى اعطيت
دروسا فى الرسم لمارى •

وهكذا مرت الايام كالساعات ، دمرت الاسابيع
كالايام ••

اما بالنسبة لمستمر سانت جون فالصداقة الحميمة
التي نشأت بينى وبين أختيه لم تشمله ، لسبب واحد
لانه لم يكن يوجد بالبيت الا نادرا • كان يقضى معظم
وقته فى زيارة المرضى والفقراء الذين فى منطقته • ولا
يمنعه من هذه الواجبات شئ •

ولكن بالاضافة الى غيابه المستمر كانت هناك
عقبة اخرى تمنع الصداقة معه • فهو يبدو ذا طبيعة
منعزلة ، يحب ان يعيش حياة العزلة • وأدركت اول
علامة حقيقية عن شخصيته عندما سمعته يلقي موعظته

فى الكنيسة .. كان يتحدث بهدوء ينمو الى قوة لقد
تحرك قلبى وتأثرت بحديثه واندھش عقلى لكلماته .
ولكنى لم أشعر بالاقتناع ، بل بالقوة .

وفى غضون ذلك ، مضى شهر ، وكان على ديانا
رمارى أن تعودا قريبا الى حيث عملهما فى جنوب
انجلترا .. ولم يقل سانت جون شيئا عن مستقبلى ،
وأصبحت هذه المشكلة مستعجلة حاليا .

وفى صباح أحد الأيام تجرأت حين كنت بمفردى
معه لدقائق قليلة ، واقتربت من الركن الخاص به فى
غرفة الجلوس . وترددت فى أن أبدأ بالكلام ، ولكنه
وفر على المشكلة ورفع بصره نحوى وأنا أقرب وقال :
- لديك سؤال تريد أن تسألينى فيه ؟

- أجل ، أود أن أعرف اذا كنت سمعت بأى
وظيفة لى .

- لقد وجدت شيئا لك منذ ثلاثة أسابيع ، ولكن
وجدتك سعيدة ونافعة هنا ، ومعاشرتك أسعدت

أختي • فقررت ألا أقطع هذه السعادة حتى يحين موعد
رحيلهما ..

— ما هو العمل الذى وجدته لى ؟

— انه ليس مربحا ، ولكنى أعتقد انك ستقبلينه
لفترة ، رغم أنى لا أظن أنه سيتلاءم مع طبيعتك بشكل
دائم •

فقلت :

— وضح من فضلك •

— سأفعل • اننى لن أبقى طويلا فى مورتون
خصوصا بعد وفاة والدى ، ولكن طالما أنا هناك سأبذل
كل جهدى لتحسينها • لقد بدأت فى انشاء مدرسة
بالفعل لاولاد الفقراء • وأنوى الآن أن أفتح مدرسة
أخرى للبنات • لقد استأجرت مبنى ملحقا به كوخ
يصلح مأوى لمدرسة المدرسة • وسيكون مرتبها ثلاثين
جنيها فى السنة • وستساعد سيدة ثرية فى المنطقة
بالنفقات • هل تقبلين أن تكونى مدرسة هذه
المدرسة ؟

- أشكرك يا مستر ريفرز ، وأقبل ذلك من كل

قلبي .

- ولكنك تفهميني : انها مدرسة قرية .

وتلميذاتك بنات فقيرات فقط . بنات عمال ومزارعين .

وكل ما ستقومين بتدريسه هو الخياطة ، والقراءة ،

والكتابة ومبادئ الحساب . ماذا ستفعلن بانجازاتك؟

- يمكن أن تنتظر .

فابتسم ، وبدأ عليه السرور .

أصبحت ديانا وماري أكثر حزنا ، وأكثر صمتا

لقرب رحيلهما وترك أخيهما وببيتهما . ولائبات حقيقة

المثل القديم الذي يقول : «ان المصائب لا تأتي فرادى»

جاء خبر ليزيد من خيبة أملهما . اذ دخل سانت جون

برسالة وقال :

- خالكما جون مات . . اقرأ هذه الرسالة . .

فقرأت كلاهما فى صمت ، وابتسمتا فى حزن .

وعلقت ماري قائلة :

- على كل لن نكون أفقر مما كنا عليه .

والتفتت ديانا الى وقالت :

- جيني ، ستندھشين منا ومن أسرارنا ، وتظنين أننا متحجرات القلب لعدم اظهار شعورنا على وفاة خالنا ، ولكننا لم نره أو نعرفه مطلقا . كان أخا لوالدتنا . وتشاجر هو ووالدي لانه بسبب نصيحته خسر والدي كل ماله . وافترقا ولم يعودا أصدقاء بعد ذلك . ولقد أصبح غنيا ، ولكنه لم يتزوج . وكان والدي دائما يأمل في أن يصلح ما أفسده ، وذلك بأن يترك لنا ممتلكاته عند وفاته . وهذه الرسالة تخبرنا بأنه ترك كل شيء لقريب آخر له . ومن حقه ، طبعا ، أن يفعل ما يسره ، لكننا لا نستطيع اخفاء شعورنا في هذه اللحظة بالخيبة . حتى ولو ترك لنا مبلغا ضئيلا من المال لكان ذلك أفضل لنا .

وبعد اعطاء هذا الشرح ، لم يذكر الموضوع مرة
أخرى . وفى اليوم التالى غادرت البيت لأبدأ حياتى
الجديدة ، بينما سافرت الاختان الى الجنوب . .

الفصل الخامس والثلاثون

مدرسة القرية

قمت بأعمال مدرسة القرية بكل ما يمكننى من نشاط وإخلاص . كانت صعبة حقا فى البداية . ومضى بعض الوقت قبل أن أستطيع فهم تلميذاتى وطبيعتهن . وكونهن جاهلات بالمرءة ، أقصد لم يتلقين أى تعليم من قبل ، فكان يبدو عليهن ، فى أول الأمر ، الغباء بشكل يائس ولكنى بعد قليل وجدت انى كنت خاطئة . فلدى كثيرات منهن ذكاء ممتاز ، وبدأن يجدن متعة فى اتقان عملهن ، بل كانت سرعة تقدمهن شيئا مدهشا ، وشعرت فى ذلك بفخر شريف وسعيد . ومع

الوقت أحسست بأننى بدأت أصبح مشهورة ومحبوبة
فى المنطقة .

ومع ذلك ، فبعد قضاء يوم فى هذا العمل
الشريف بين تلميذاتى ، ومرور أمسية فى الرسم
والقراءة قانعة وبوحدتى راضية ، اعتدت أن أحلم أحلاما
غريبة فى الليل .. من بينها مناظر غير عادية
ومغامرات عاصفة ، والتقيت فيها بمستر روتشستر
مرات ومرات ، ودائما فى لحظات مثيرة . وعاد لى
الأمل فى أن أقضى حياتى بجانبه بكل قوته الأولى
وناره . وكنت أستيقظ عندئذ ، وفى ظلام الليل
الساكت وأستسلم لليأس مرة أخرى .

وفى أحد الأيام ، وكان عطلة ، وكان منزلى
مرتبا ، فجلست أرسم بعد الظهر ، عندما انفتح الباب ،
بعد طريقة واحدة سريعة ، ودخل مستر ريفرز ،
وقال :

— لقد أتيت لأرى كيف تقضين أوقات فراغك ..
وآمل ، الا يكون فى التفكير ؟ .. ولكن كلا .. هذا

جيد . فعندما ترسمين ، لن تشعري بالوحدة .
ولقد أحضرت لك كتابا . .

وبينما كنت أتطلع بشغف فى صفحاته ، انحنى
سانت جون ريفرز ليفحص رسمى . وعندما انتهى ،
سحب من فوقها صفحة الورق الرقيقة التى اعتدت
أن أسند يدى عليها أثناء الرسم لأمنع وقوع أى اتساخ
على السطح . ماذا رأى على هذه الورقة الفارغة ، لم
أدر ، لكنه كان شيئا جذب انتباهه . فأخذها وألقاني
بنظرة غريبة بشكل معبر ، ولكنها بعيدة عن فهمى .
وانفرجت شففتاه وكأنه يريد أن يتكلم ، ولكنه كتم
الجملة التى لا أدرى ما هى .

فسالت :

— ما الخبر ؟

فاجاب وهو يعيد الورقة مكانها :

— لا شئ على الاطلاق .

ورأيتہ يقطع بعناية شريطا رفيعا من طرفها ،

ثم اختفت في جيبه وإيماءة سريعة و « تصحبي على
خير ، ... وخرج .

فحصت الورقة بدوري ، ولكنني لم أر شيئا ما عدا
بعض بقع الألوان القاتمة .. وحيرني هذا الغموض
لدقيقة أو اثنتين ، لكنني لم أجد تفسيراً ، وطردتها من
عقلي في الحال ..

الفصل السادس والثلاثون

الوريثة

وعندما خرج سانت جون ، كان الثلج قد بد
يهطل بشدة واستمرت العاصفة طوال الليل ،
وجاءت ريح باردة كالصقيع فى اليوم التالى جلبت
مطول ثلج جديد ، فأصبح الخروج من الأبواب يكاد أن
يكون مستحيلا . ولذلك كانت دهشتى عظيمة جدا
عندما انفتح الباب بغتة وظهر سانت جون ريفرز وتكاد
تكون قامته الطويلة مغطاة بالثلج .
فسأله :

- هل توجد أية أخبار سيئة ؟ هل حدث أى

شئ ؟

فأجاب ، وهو يتخلص من معطفه وينشر الثلج من
على حذائه :

- كلا ، انك تنزعجين بسهولة ! اننى أفسد
نظافة غرفتك . ولكن أعذرينى ولو مرة !
- ولكن ، لماذا أتيت ؟

- ياله من سؤال محرج ليوجه لزائر . رغبت
فقط أن أتحدث معك . فمن الأمس وأنا أخوض تجربة
شخصية . . انسان حكيت له قصة ، أو بالأحرى ،
نصف قصة ، ونقد صبره لسماع نهايتها .

وجلس ، وانتظرت ، ولكنه بدا مشغولا بأفكاره .
فواصلت القراءة التى توقفت عنها لدخوله . وبعد
قليل أخذ رسالة من جيبه ، ونظر اليها فى صمت ،
وتكلم أخيرا :

- أتركى كتابك لحظة ، وتعالى لتقربى قليلا من
المدفأة !

فامتثلت وأنا مندهشة . واستمر قائلا :

— منذ برهة وجيزة ، تكلمت عن قصة انتهى
نصفها • ساعدها عليك • ومن العدل أن أحذرک بأن
بعضها سيبدو مألوفاً •

منذ عشرين سنة أحب قس فقير — لا داعي
لاسمه — لـمة رجل ثرى • وبادلتها الحب ، وتزوجته
ضد نصيحة كل أصدقائها • • وقبل مرور سنتين ،
مات كلاهما • وتركها ابنة ، بلا صديق ، فربتها خالة
كارهة لذلك اسمها مسز ريد ، من جيتسهيد • انك
تتحركين • • هل سمعت ضوضاء ؟

وذهبت اليتيمة عندما كانت فى العاشرة من
عمرها الى مكان تعرفينه • • مدرسة لوود ، حيث
تركت سجلاً ممتازاً كتلميذة ومدرسة • وأصبحت
مربية فى منزل شخص يدعى مستر روتشستر •

فقاطعتها قائلة :

— مستر ريفرز !

— كدت أنتهى • إنا لا أعرف شيئاً عن مستر

روتشستر ، فيما عدا أنه تظاهر بعرض زواج شريف
على هذه الفتاة الصغيرة ، وأنها فى آخر لحظة اكتشفت
ان لديه زوجة لا تزال على قيد الحياة رغم أنها مجنونة .
وبعد ذلك مباشرة ، حدث حادث جعل من الضرورى
البحث عن المربية . فاكشفوا عندئذ أنها ذهبت ، ولا
أحد يستطيع أن يعرف متى ولا أين ولا كيف اختفت .
وكانت جميع الجهود للبحث عنها بلا طائل . ومع
ذلك أصبح العثور عليها مسألة مستعجلة جدا .

فنشرت الاعلانات فى جميع الصحف . وأنا نفسى
استلمت رسالة من شخص يدعى مستر بريجز
المحامى ، معطيا هذه التفاصيل .

فقلت :

- لكن قل لى . ماذا عن مستر روتشستر ؟ هل
هو بخير ؟

- ليس لدى أية معلومات عن أى شىء يتعلق
بمستر روتشستر ، فيما عدا محاولته تضليل القانون .

جيني ابر - ٣٢١

– لكن هؤلاء الناس كتبوا له ؟

– يذكر مستر بريجز أن الإجابة على طلبه من أجل الاستعلام قد وقع من قبل سيدة اسمها : أليس فيرفاكس . لا بد أن مستر روتشستر هذا كان رجلا سيئا .

فقلت :

– انك لا تعرفه . فلا تبدى رأيك فيه .

وأخرج مستر ريفرز من جيبه قصاصة صغيرة من الورق بها بعض الألوان الزيتية . فقرأت عليها بخط يدي اسمي « جين اير » ، لا أشك أنني كتبتها في لحظة ما بدون وعي . ثم أردف قائلا :

– كتب بريجز لي عن من تدعى جين اير ، والاعلانات تطلب شخصا بهذا الاسم . أنا أعرف . جين اليوت ، وعندي شكوكي . وقالت لي قطعة الورق هذه الحقيقة بالأمس . هل تعترفين باسمك الحقيقي ؟

- أجل ، ولكن أين مستر بريجز ؟ ربما يعرف
أكثر منك عن مستر روتشستر .

- مستر بريجز موجود في لندن ، ولكنني أشك
في أنه يهتم بمستر روتشستر . لم تسأل لماذا يهتم
بك أنت .. لماذا يبحث عنك ؟

- حسن ، ماذا كان يريد ؟

- ليقول لك فقط أن عمك ، مستر ايسر من
ماديرا ، قد توفي ، وأنه قد ترك لك كل ممتلكاته ،
وأنك الآن غنية .. ذلك فقط .. لا شيء أكثر .

- أنا ! غنية !؟

- أجل الوريثة الوحيدة .. !!

الفصل السابع والثلاثون

أبناء عمتي

انه شيء جميل هذا الارتفاع في لحظة من الفقر الى الثراء .. ولكنه ليس موضوعا يمكن للانسان الاستمتاع به في الحال . بالاضافة الى أن عمي ، قريبي الوحيد ، الذي كنت آمل أن أراه يوما ما ، قد مات .

قال مستر ويفرذ :

- فلترفعي رأسك أخيرا ، ربما ستسألين كم تساوين ؟

- كم أساوي ؟

— أوه ، حاجة بسيطة ! حاجة لا تذكر ٠٠ عشرون ألف جنيه !

— عشرون ألف جنيه !

فقال مستر سانت جون ضاحكا ، وهو الذى لم
أره يضحك من قبل :

— حسن ، لو كنت متهمة بالقتل وأخبرتك بأن
جريمتك قد اكتشفت ، ما كنت انزعجت أكثر من
ذلك .

— انه مبلغ كبير . ألا تعتقد بأن هناك خطأ ؟

— لا يوجد خطأ على الإطلاق .

ونهض الآن مستر ريفرز ، وقال تصبحين على
خير ، وكانت يده على الباب ، عندما طرأت لى فكرة
مفاجئة ، فصرخت قائلة :

— انتظر دقيقة !

— حسن ؟

— ان ما يحيرنى وأريد أن أعرفه ، لماذا كتب لك
بريجز عنى ، و كيف عرف أو استطاع أن يتخيل بأنك
المقيم فى مثل هذا المكان المنعزل ، لك القدرة للمساعدة
فى اكتشافى .

— أوه ، اننى قس . وعادة ما تسأل الناس
القس للمساعدة فى شتى الأمور .

فقلت وقد تيقظ فضولى :

— كلا ، ان هذا لا يرضينى ! لا بد أن أعرف
المزيد عن هذا الأمر .

— مرة أخرى سأقول لك ما ترغبين سماعه .

— كلا ! الليلة !

وقبل أن يلتفت من الباب ، وضعت نفسى بينهما ،
فبدا مترددا نوعا ما ، وقال :

— أفضل أن تخبرك ديانا أو مارى .

فما كان الا أن زاد شغفى ، فاصررت مرة أخرى
على اشباع فضولى .

فقال :

- لكنى أحذرك فانا رجل قاس ، صعب تحريضه .
- وأنا فتاة قاسية .. من المستحيل ائمالها .

فقال :

- حسن ، انى أستسلم ، اذا لم يكن لشغفك ،
- فلاصرارك . بالاضافة الى أنك يجب أن تعرفى فى يوم
- ما .. هل اسمك جين اير ؟
- طبعاً ، هذا فرغنا منه من قبل .
- انك لا تعرفين ، على ما أعتقد ، باننى ادعى
- سانت جون اير ريفرز ؟
- كلا ، فى الحقيقة ، اذكر الآن اننى رأيت
- الحرف « ا » فى اسمك المكتوب فى الكتب التى قد
- أعرتها لى .. ولكن ماذا فى ذلك ؟ بالتأكيد ..
- وتوقفت ، اذ تدفقت الحقيقة على ، عندما بدأت
- التفاصيل تربط نفسها فى عقلى ، واستمر سانت جون
- بقول :**

- ان أمى تحمل اسم اير ، اذ كان لها أخان .
واحد قس وهو الذى تزوج من مسز جين ريد من
جيتسهيد « والدتك » ، والآخر ، جون اير ، تاجر
ماديرا . ولقد كتب لنا مستر بريجز فى شهر أغسطس
الماضى ، بصفته محامى مستر اير ، ليخبرنا عن وفاة
خالنا ، ويقول أنه قد ترك ثروته لليتيمة ابنة أخيه
القس ، ولا يعطينا نحن شيئا ، نتيجة لمشاجرة ، لم
تنس أبدا ، بينه وبين أبى . ثم كتب ثانية ، بعد
عدة أسابيع ، ليقول ان الوريثة فقدت ، ويسأل اذا
كنا نعرف عنها أى شىء . ومكنتنى قصاصة ورق صغيرة
مكتوب عليها الاسم من العثور عليها . وتعرفين
الباقى .

فقلت :

- دعنى أتكلم لو سمحت . أمك كانت أخت
أبى ١٩

- أجل

- عمى جون كان خالك جون ؟ اذن ، أنت
وديانا ومارى أولاد عمتى ؟!

- أجل ، نحن أولاد عمتك وأنت ابنة خالنا !!

فنظرت اليه ... هذه ثروة فى الحقيقة ، ثروة
للقلب ... فقلت :

- أوه ، كم أنا سعيدة !

فابتسم سانت جون ، وقال :

- ألم أقل انك تهملين نقاطا هامة فى سبيل
موضوعات بسيطة ؟ .. لقد كنت جادة عندما أخبرتك
بأنك قد حصلت على ثروة ، والآن. تنفعلين
لموضوع لا أهمية له .

- ماذا تقصد ؟ قد لا يكون له أهمية عندك ،
فليدك أختان ولا تهلك ابنة خالك .. ولكنى ليس لى
أحد ، والآن لدى ثلاثة أقارب . أقول ثانية ، أنا
سعيدة !

وأخذت أمشى ذهابا وإيابا ، والأفكار تتدفق

بسرعة أكثر من امكانياتي للتعبير عنها . ووضع مستر ريفرز كرسيًا خلفي وحاول برفق أن يجعلني أجلس عليه .

فقلت :

— أكتب لديانا وماري غدا ، وأبلغهما أن تأتيا للبيت حالا . . . قلت ديانا ان مبلغا قليلا من المال كان سيصنع اختلافا لهما . اذا بخمسة آلاف جنيه لكل واحدة منا . . ان ذلك سيجعلهما سعيدتين !

فقال سانت جون :

— دعيني أحضر لك كوبا من الماء . يجب أن تحاولي بجهد وتهدئي من روعك .
— مستر ريفرز ! انك تجعلني أفقد صبري .
انني عاقلة بما فيه الكفاية .

— ربما ، اذا عبرت عن نفسك أكثر .

— أعبر ! ماذا يحتاج الى تعبير ؟ يجب أن تدرك أن عشرين ألف جنيه مقسمة بالتساوي بيننا نحن

الأربعة ، ستعطى كل واحد منا خمسة آلاف جنيه .
انى لست أناانية بشكل جشع ، أو ظالمة بشكل أعمى ،
أو ناكرة للجميل بشكل حرون . . . ابدا ، لا يمكن أن
يكون هذا المال كله لى . . . انصافا ، رغم انه قد
يكون . . . قانونا !

– جين ، سنكون أولاد عمك ، دون أن نتوقع
هذه التضحية منك .

– أولاد عمة . . . أنا ، غنية ، وأنتم فقراء !
– والمدرسة ، مس اير ؟ لابد أن تغلق حاليا ،
على ما أظن ؟

– كلا ، سأحتفظ بوظيفتى كمدرسة حتى تجد
من تحل محلى .

فابتسم موافقا . وتركنى :

لقد واجهت مقاومات كثيرة ، كما استخدمت سبل
اقتناع عديدة قبل توزيع المال حسب رغبتى . وكان
عملا شاقا ، لكن لما كنت صادقة العزم على أن أطبق

قسمة عادلة للميراث ، ومصرة على أن يشعر أولاد عمتي
من قلوبهم ، بأننى كنت أعمل فقط ما كانوا سيعملونه
لو كانوا مكانى .. وأخيرا رضخوا ، على أن يسمحوا
بالبت فى الموضوع من قبل المحامين . وحاز رأيى
بالتأييد ، فدونت الأوراق الضرورية ، وتم توقيعها ..
وأصبحت أنا وسانت جون وديانا ومارى ملاكا لثروة
معقولة ..

الفصل الثامن والثلاثون

عودة مارى وديانا

كنا قرب « الكريسماس » عندما تم تسوية كل شيء ، واقترب موعد الأجازة ، وأغلقت مدرسة مورتون .

جاء مستر ريفرز . ورأيت الفصول ، عددتهن الآن ستون بنتا ، خرجن أمامى . وأغلقت الباب ، ووقفت والمفتاح فى يدى ، أبادل بعض الكلمات مع مجموعة من أفضل تلميذاتى .

فسألنى عندما ذهبن :

— هل ترين بأنك نلت مكافأتك مقابل فترة

العمل ؟ أليست الحياة من أجل تحسين بنات جنسك
استثمارا حسنا للوقت ؟!

فقلت :

- أجل ، ولكننى لا أستطيع الاستمرار هكذا
الى الأبد . أريد أن أتمتع بطاقتى الذاتية ، مثلما
أنى هذه الطاقات لدى الناس الآخرين . يجب أن
أتمتع بها الآن : انى مستعدة لأجازه ، فلا تذكرنى
بالمدرسة !

فبدا جادا وقال :

- ما هذا ؟ ماذا ستفعلين ؟

- أن أكون نشيطة . اريدك أن تدع حنا
تساعدنى . فديانا ومارى ستكونان بالبيت فى غضون
أسبوع ، وأريد أن يكون كل شئ مرتبا من أجل
وصولهما ..

- هكذا ؟ .. فكرتك ستذهبين فى رحلة ما .

الترتيبات فى المنزل كلها أشياء حسنة جدا فى الوقت

الراهن ، ولكنى أثق فى انك فيما بعد سترومين لهدف
أعلى قليلا عن متع تدبير المنزل !

واشتغلنا أنا وحننا بجد ، وعندما أصبح المنزل
نظيفا تماما ، اشتريت أثاثا جديدا وسجادا وقضيت
وقتا طويلا فى ترتيبها .

وجاء اليوم العظيم أخيرا . وارتديت أنا وحننا
ملابسنا وكل شئ كان على أتم استعداد

ووصل سائق جون أولا ، فوجدنى فى المطبخ
أراقب الكعك أثناء خبزه ، لتقدمه مع الشاي .
وسالنى وهو يقترب من المدفأة اذا كنت قد اكتفيت
بعمل الخادمة ، ثم ذهب الى غرفة الجلوس وبدأ يقرأ .
وصرخت حنا وهى تفتح الباب على مصراعيه :

— انهما قادمتان ! انهما قادمتان !

فركضت للخارج ، ووقفت العربية عند البوابة .
وفتح السائق الباب ، فنزلت الأولى ثم الثانية .
وضحكتا وقبلتاى وقبلتا حنا وأسرعتا الى المنزل .
وبينما أحضر السائق وحننا الأمتعة ، طلبتا

سانت جون ، الذى قدم فى هذه اللحظة من غرفة
الجلوس . فعانقته فى أخوية مفرحة ، واعطى كل
واحدة منهما قبلة سريعة .. وقال فى صوت خفيض
بضع كلمات للترحيب بهما .. ثم عاد الى غرفة
الجلوس !

كانت أمسية سعيدة . وكان لديهما كلام كثير ،
غطى على صمت أخيهما . لقد كان سعيدا حقا لرؤياهما
ولكنه لم يستطع الاشتراك فى مرحهما .

ولابد أن طوال الأسبوع التالى كان امتحانا
لصبره . كان أسبوع « الكريسماس » وكنا فرحين
تماما .. واعطت حرية البيت وهواء الريف وقدم
الثروة الطيبة حياة هائلة لديانا ومارى ، فكانتا فى
سعادة من الصباح الى المساء . وابتعد سانت جون
عنا . كان نادرا ما يبقى فى المنزل ، فدائما كان يجد
أعمالا يومية فى زيارة المرضى والفقراء فى مورتون .

وعندما بدأت سعادتنا تصبح أكثر هدوءا ، عدنا
الى عاداتنا الاعتيادية ودراساتنا العادية . فاخذت مارى
ترسم وديانا تقرأ وأنا أدرس اللغة الألمانية . وسانت

جون الذى يبقى أكثر الآن بالمنزل أخذ يدرس بعض اللغات الغربية التى كانت ضرورية لخطته المستقبلية . وهكذا بدأ مشغولا تماما ، ولكن عينيه الزرقاوين كانتا تتركان قواعد اللغات العجيبة التى يدرسها ، وتتجولان فيما حوله ثم تستقران أخيرا على أنا . . . وتعجبت ، ماذا تعنى هذه النظرات ، وتعجبت أيضا ، بالرضا المستمر الذى يظهره عند زيارتى الأسبوعية لمدرسة مورتون . وإذا كان الطقس رديئا كانت اختاها تحرضاننى على عدم الذهاب أما هو فقد كان يشجعنى دائما على المجئ لزيارة المدرسة . . . وعندما كنت أعود متعبة أحيانا ومبتلة من المطر ، لم أكن أجرو أن أشكو مطلقا ، لأنى أرى أن ذلك قد يضايقه .

ومع ذلك ، ففى بعد ظهر أحد الأيام ، سمح لى أن أبقى بالمنزل بسبب البرد . وذهبت أختاها بدلا منى . وجلست أنا أترجم ، وجلس هو يعمل فى قواعد اللغة التى يدرسها . ووجدت نفسى تحت تأثير عينيه اللتين تستقران على دائما ، وقال لى :

— جين ، ماذا تفعلين ؟

- أتعلم اللغة الألمانية .

- أريدك أن تتركى الألمانية وتدرسى اللغة الهندوستانية .

- انك لست جادا ؟

- جادا تماما ، سأقول لك لماذا .

ومضى يشرح لى أن اللغة الهندوستانية هي اللغة التي يدرسها حاليا ، استعدادا للذهاب الى الهند فى بعثة تبشيرية ، وسيساعده بشكل عظيم أن يكون لديه تلميزة يراجع معها الدروس الاولى ويثبتها باتقان فى عقله . فهل أقدم له هذا المعروف ؟ الذى لن يستغرق مدة طويلة ، لانه يتوقع أن يغادر انجلترا فى غضون ثلاثة أشهر .

لم يكن سانت جون رجلا يرفض بسهولة .. ويشعر الشخص أن كل شيء يجربه المأ أو متعة . له تأثير عميق ودائم عليه . فوافقت .

ووجدته أستاذا صبوراً جداً ومع ذلك فقد كان صارماً . وكان يتوقع منى أن أفعل الكثير . وبالتدريج

كسب تأثيرا خاصا على الشيء الذى سلب حرية عقلى .
فلم أعد أضحك أو أتكلم بحرية عندما يكون قريبا :
وكنت أشعر بأن المشاغل والأفكار الجادة فقط هى
التي يوافق عليها . ولكنى لم أحب حالة اذعانى له ،
ووددت مرات كثيرة أن يستمر فى اهمالى ..

الفصل التاسع والثلاثون

جين ! جين ! جين !

وفى وسط تغيرات المكان هذه وهبوط الثروة المفاجئة لم أنس مستر روتشستر ولا للحظة واحدة .
وتبعتنى الرغبة فى أن أعرف ما قد حدث له فى كل مكان .

وأثناء سير مراسلاتى مع مستر بريجز عن المال الذى تركه لى عمى ، استفسرت عما إذا كان يعرف أى شىء عن أعمال مستر روتشستر وحالته الصحية، ولكنه كان بلا معلومات تماما عن أى شىء يتعلق به . فكتبت

عندئذ الى مسنز فيرفاكس ، أرجسوها افادتى فى
الموضوع . وانهشت عندما مر أسباعان بدون رد ،
ولكن عندما مر شهران ، ويوما وراء يوم لا يجلب
البريد لى شيئا ، بدأت أشعر بقلق مفرط .

كتبت ثانية . لعل رسالتى الأولى قد فقدت .
وعاد الامل لبضعة أسابيع ثم خبا . . ولم يصلنى سطر
واحد ولا كلمة واحدة . وعندما انتظرت نصف سنة
بلا جدوى ضاع أملى ثم شعرت بالأسى كله . .

وهل ربيع جميل ملأ الدنيا جمالا من حولى ،
ولكنى لم أستطع التمتع به . واقترب الصيف .
وحاولت ديانا أن تدخل على نفسى البهجة ، وقالت
بأننى أبدو مريضة ، ورغبت فى أن تأخذنى فى أجازة
بجانب البحر . واعترض سانت جون على ذلك قائلا
اننى لست فى حاجة الى تسلية بل الى وظيفة : فحياتى
الراهنه بلا هدف . . واستمر فى اعطائى المزيد من
الدروس فى اللغة الهندوستانية ، وأنا كالبلهاء ،
لا أقدر على مقاومته .

وفي احدى الامسيات ، عدت الى دراساتي شاعرة
بالحزن أكثر من العادة . فلقد اخبرتني حنا في الصباح
بأن رجل البريد قد ترك لى شيئا ما ، وعندما نزلت
لأخذها ، وأنا على يقين بأنها الأخبار المرغوبة أخيرا ،
وجدتها رسالة عادية من مستر بريجز فى بعض الأمور
القانونية . فكانت خيبة أمل المريرة مجالا لاستنزاف
دموعى دون ارادتي ، والآن وأنا جالسة أتصارع مع
الكتابة الهندية ، اغرورقت عيناي بالدموع ثانية .

ونادانى سانت جون بجانبه لأقرأ . وعند
محاولتى هذه خائنى صوتى . وكنا أنا وهو بمفردنا
فى غرفة الجلوس . لم يظهر رفيقى أى اندهاش ازاء
فيض شموعى ، ولم يسألنى عن سبب ذلك ،
قال فقط :

- سننتظر دقائق حتى تهدئين يا جين .

مسحت دموعى وتمتعت بأننى لست على ما يرام
وعدت الى درسى ، ونجحت فى اتمامه . ونحى سانت
جون كتبى جانبا وأغلق مكتبه ثم **قال :**

- جين ، اريد أن أتكلم معك .

وظل صامتا لبرهة ، ثم استمر قائلا :

- جين ، سأذهب في غضون ستة أسابيع .

لقد حجزت رحلتى على مركب تبخر فى ٢٠ يونيو القادم .

شعرت وكأن قدرا ما يتشكل من أجلى .

وارتعشت لسماع ما سيقوله بعد ذلك . وقد كان ،
اذ قال :

- جين . تعالى معى الى الهند !

بدت الغرفة تلف من حولى وتدور . فصرخت

قائلة :

- أوه ، سانت جون ! كن رحيما !

فاستمر :

- ان الله والطبيعة يقصدانك أن تكونى زوجة

مبشر . لقد خلقت للعمل ، لا للحب . يجب أن تكونى

زوجة مبشر ، وستكونين . . . زوجتى . . . من أجل

خدمة الله .

فاجبت :

- اننى لا أصنع لذلك !

- لدى اجابة لك ... اسمعها . لقد راقبتك منذ التقينا لأول مرة .. لقد رأيتك تمرين باختبارات عديدة للشخصية .. فى مدرسة القرية وجدتك قادرة على الأداء الجيد ، وبصبر وجلد .. العمل الذى كان ضد ذوقك ورغبتك .. والهدوء الذى استقبلت به خبر الثروة المفاجئة .. ورأيت أن المال ليس له تأثير قوى عليك . وفى استعدادك لتقسيم الثروة الى أربعة أجزاء ، والتخلى عن ثلاثة .. علمت أن لديك القوة فى التضحية بالذات .. فى الاذعان الذى أبديته لى ، عند رغبتى ، فى تركك الدراسة التى كنت تهتمين بها وسلكت دراسة أخرى .. كل ذلك أراه ميزات عظيمة النفع لعملى . وكمساعدة فى المدارس الهندية وبين النساء الهنديات ستكونين ذات قيمة كبيرة لى وللجميع ..

- لا يجب أن أعيش طويلا فى مثل هذه البلاد !

فقال باستهزاء :

- آه ! انك تخافين من نفسك .

- ماذا تقصد ؟

- أعرف أين قلبك : ان العاطفة التي تحتفظين بها حية غير قانونية وغير مقدسة . انك تفكرين في مستر روتشستر .

كانت هذه حقيقة . اعترفت بها بسكوتي .

وأصبحت القضية واضحة جدا أمامي . فبمغادرتي انجلترا ، أغادر بلدا أحبها لكنها خاوية . وأينما يكون مستر روتشستر ، فهو لا شيء بالنسبة لي . يجب أن أجد اهتماما آخر في الحياة بدلا من ذلك الذي فقدته ، وهل هناك مجد أكبر من ذلك الذي قدمه لي سانت جون ؟

فقلت أخيرا :

- يمكنني أن أقرر ، اذا كنت على يقين . لو كنت

فقط متأكدة أن هذه هي ارادة الله . . . !

كنت أرغب باخلاص أن أفعل ما هو صواب ،
فدعوت السماء ، وأنا منفعة أكثر من أى وقت مضى :
- « اللهم اهدنى طريق الصواب ! اللهم اهدنى
طريق الصواب ! » .

كان المنزل كله هادئا ، فالجميع قد صعدوا
للطابق العلوى للنوم ماعداى أنا وسانت جون .
وانتهت الشمعة المشتعلة الوحيدة ، وافترش ضوء
القمر الغرفة . فدق قلبى بسرعة وبثقل : وسمعت
حركته . وفجأة وقف ساكنا وكان شعورا غامضا جرى
عبره . . شعور لم يكن مثل الصدمة الكهربائية ولكنه
كان حادا وغريبا مثلها . .

فسألنى سانت جون :

- ماذا سمعت ؟ ماذا ترين ؟

لم أر شيئا ، ولكنى سمعت صوتا فى مكان ما
يصرخ :

- جين ! جين ! جين !!

لم يكن يبدو فى الغرفة ، ولا فى المنزل ، ولا فى

الحديقة • لم يخرج من الهواء ، ولا من تحت الأرض
ولا من فوقى • سمعته ، وكان صوت بشر • • كان
صوتا معروفا ، محببا • • صوتا أذكره جيدا • • انه
صوت ادوارد روتشستر ، وتكلم باستعجال ، ووحشية
واضحة • فصرخت :

- اننى قادمة ! انتظرنى ! اوه ، سوف آتى !
وطرت الى الباب وتطلعت فى المر • • كان مظلمًا
• • فركضت فى الحديقة • • كانت خاوية ! • •

فسالت متعجبة :

- أين أنت ؟ • • أين أنت • • ؟
وكررت التلال البعيدة صرختى ، لكن كل شىء
كان خاويا •

تبعنى سائت جون ، ولكننى طلبت منه أن
يتركنى • فاطاعنى فى الحال • •

وصعدت الى غرفتى ، وأغلقت على نفسى ، وركعت
على ركبتى فى دعاء • • ونهضت عاقدة العزم ، أنتظر
نور الصباح • •

الفصل الأربعون

الاطلال المحترقة

وجاء نور الصباح ، فأشغلت نفسى فى ترتيب حاجياتى ، وسمعت سان جون يفادر غرفته ويفتح الباب ويخرج .

كان لا يزال هناك ساعتان على موعد الافطار . فقضيت الوقت سائرة فى غرفتى ، ومفكرة فيما قد حدث الليلة الماضية . وتذكرت ذلك الشعور الداخلى الذى سبرت أغواره بكل غرابته التى لا توصف . . وتذكرت الصوت الذى سمعته . . فسألت ثانية من أين جاء . لكن بلا فائدة . . ربما كان هذا الصوت يتردد فى داخلى . . وليس فى العالم الخارجى . .

فسألت نفسي هل كان مجرد خيال عصبى .. هل كان
من وحي خيالى . لايمكن أن أصدق هذا ..

وعلى الافطار ، أخبرت ديانا ومارى اننى سأقوم
برحلة ، وسأغيب أربعة أيام على الأقل . فسألتانى :

- وحدك يا جين ؟

- أجل ، لأرى أو أسمع أخبارا عن صديق كنت
قلقة عليه مدة طويلة .

وبطريقتهما الحساسة الرقيقة لم يطرحا مزيدا
من الأسئلة ، فيما عدا ديانا التى سألتنى اذا كنت
متأكدة بأن صحتى جيدة وفى حالة تسمح بالسفر .

تركت المنزل فى الساعة الثالثة ، وعند الرابعة
وقفت عند اشارة البريد منتظرة العربة التى تأخذنى
الى ثورنفيلد .. وفى سكون تلك التلال المنعزلة
سمعتها تقترب من بعيد . انها نفس العربة التى نزلت
منها منذ عام ، فى نفس المكان .. كم هو مكان منعزل
وموحش !!

والآن .. هانذا أصبحت حرة مرة أخرى ..
وشعرت وأنا متجهة الى ثورنفيلد ، بأنى مثل حمامة
تعود الى بيتها ..

كانت الرحلة لمدة ست وثلاثين ساعة ، وعند
نهايتها ، أصبحت الأرض بشجيراتنا الخضراء وحقولها
الممتدة وتلالها المنخفضة أكثر اعتدالا الا عن المنطقة
التي قدمت منها ، فالتقت بها عيني مثلما تلتقي
بملاعج وجه مألوف ووقفت العربية عند فندق بالقرية
فتكلمت مع الخادم الذى خرج من الفندق ، وسألته :

- كم تبعد ثورنفيلد هول من هنا ؟

- ميلين فقط عبر الحقول ، سيدتى .

نزلت من العربية وتركت صندوقى فى الفندق .
وسطع نور الصباح الباكر على اللافتة وقرأت
الحروف الذهبية ، « درع روتشستر » . فدنق قلبى
طربا : كنت فى أراضى سيدى . ثم غاض قلبى ثانية ..
اذ جاءتنى فكرة :

قد لا يكون سيدك هنا ، وحتى لو كان . فليس

لك شأن • يجب الا تستمرى • اطلبى من الناس
بالفندق معرفة الاخبار •

كان الاقتراح معقولا ، ومع ذلك لم أستطع أن
أجعل نفسى تقبله • وخفت اجابة قد تسحقنى باليأس •
أريد أن أتطلع مرة أخرى الى ثورنفيلد هول • وكانت
أمامى ، الحقول والمر • وقبل أن أعى ما أنا فاعلة ،
كنت ، فى طريقى • كم مشيت مسرعة ! • كم تطلعت
أمامى لالتقط أول مشهد من الغابة المعروفة ؟!

وأخيرا ظهرت أمامى • فأسرعت الخطى • • حقل
آخر • • طريق ضيق • • ثم جدران الفناء والمباني فى
الخلف • كان المنزل نفسه لا يزال مختفيا • وقلت :

- سارى واجهة المنزل أولا ، حيث يمكن أن أرى
نافذة سيدى • ربما سيكون واقفا عندها • • فهو
يستيقظ مبكرا • ربما يكون الآن فى الحديقة يتمشى •
بالتاكيد ، فى هذه الحالة ، لا يجب أن أكون مجنونة
وأركض اليه ؟!

مررت على جدران حديقة الفواكه ومشيت حول
المنعطف . كانت توجد بوابة خلفية ، بين عمودين
حجريين . فأطللت برأسي حول واحد منهما بحذر .
وتطلعت بسعادة مخيفة تجاه المنزل النبيل . فرأيت
أطلالا محترقة ، مع سكون الموت من حوله . . !!

الفصل الحادى والأربعون

الضريير

كان لابد أن أحصل على اجابة للاستئلة التى
تدفقت فى ذهنى .. لن أستطيع العثور عليها الا فى
الفندق ، فعدت اليه بسرعة ..

أحضر صاحب الفندق بنفسه الطعام الذى طلبته .
وتمكننت من سؤاله أخيرا :

- تعرف ثورنفيلد هول ، طبعا ؟

- أجل ، ياسيدتى ، لقد كنت فى خدمة المرحوم

روتشستر .

فقلت في اندهاش :

- المرحوم ! هل مات ؟
- أقصد والد السيد الحالى ، مستر ادوارد .

فتنفس الصعداء ثانية ، وسالته :

- هل مستر روتشستر يعيش في الهول حاليا ؟
- أوه ، كلا ، ياسيدتى ! لقد احترقت ثورنفيلد هول في الخريف الماضى .. حادث مروع ! لقد تحطمت كمية هائلة من المقتنيات القيمة . شبت النيران فى منتصف الليل . وكان منظرا مخيفا .. لقد رأيته بنفسى !

فى منتصف الليل ! كانت دائما ساعة الكوارث فى ثورنفيلد ، وسالته ثانية :

- هل تعرف كيف بدأ الحريق ؟
- انهم يخمنون ياسيدتى ، انهم يخمنون .
- ثم اردف بصوت منخفض وهو يقترب منى :**
- لعلك لاتعرفين ، لقد كانت هناك سيدة ..
- .. امرأة مجنونة فى المنزل .

– لقد سمعت شيئا من ذلك •

فاستمر قائلا :

– لقد تبين أن هذه السيدة هي زوجة مستر روتشستر •• وتم اكتشاف ذلك بأغرب الطرق • كانت توجد فتاة ، مربية في الهول ، وكان مستر روتشستر ••

فقلت :

– ولكن الحريق •

– سأصل لذلك ياسيديتي •• مربية كان مستر روتشستر يحبها • وقال الخدم بأنهم لم يروا أحدا يحب كل هذا الحب مثله • وكانت شيئا صغيرا ، يقولون مثل الطفلة تقريبا • حسن ، وأصر على أن يتزوجها ••

فقلت :

– ستخبرني بهذا الجزء من القصة فيما بعد ،

ولكنى أريد أن أسمع عن حادث الحريق . هل هذه المرأة المجنونة هي السبب ؟

- بالتأكيد ياسيدتى ، انها اشعلتها . كانت لديها امرأة تعتنى بها ، تدعى مسز بوول ، يعتمد عليها ، الا فى عيب واحد .. أنها أحيانا تشرب الخمر ، وتنام .. وفى هذه الحالة تسرق مريضتها مفاتيحها وتهرب .. فى هذه الليلة أشعلت هذه المجنونة النار فى ستائر غرفتها ، ثم نزلت وأحرقت السرير الذى فى غرفة المربية ، ولكنه كان خاويا . لحسن الحظ .
قد هربت المربية قبل ذلك بشهرين ، ورغم أن مستر روتشستر قد بحث عنها وكانها أثمن شيء فى العالم ، فلم يسمع كلمة عنها أبدا ، وأصبح كسير القلب بسبب خيبة أمله . وأراد أن يكون وحيدا . فأرسل مسز فيرفاكس مديرة منزله الى أصدقائها فى منطقة نائية .
والحق مس أديل ، وهى بنت صغيرة كانت فى عهده ، بالمدرسة .. ورفض أن يزور أحدا من جيرانه وأغلق على نفسه فى المنزل .

- ماذا ! ألم يفادر انجلترا ؟

- يفادر انجلترا ! لم يتحرك من باب المنزل ،
ماعدا في الليل ، عندما يتمشى كالشبح حول الحديقة
وكانه قد فقد صوابه .. وهذا كان رأيي ، لأننى لم أر
أشجع ولا أنشط منه قبل أن تقلب هذه المربية كيانه .
لم يكن جميلا ولكنه كان شجاعا شهما ..

- اذن ، كان مستر روتشستر بالبيت. عند
اشتعال الحريق ؟

- أجل ، لقد ذهب الى الغرف الخلفية ، عندما
شب الحريق فى كل مكان ، وأخرج الخدم بأمان ،
ثم عاد ليخرج زوجته المجنونة من غرفتها . فنادوا عليا
لأنها صعدت الى السطح حيث وقفت. تلوح بذراعيه
وتصيح . كانت امرأة ضخمة لها شعر أسود طويل
استطعنا أن نراه وهو يطير تجاه اللهب وهى واقفة
تضحك . فرأيناه يتسلق الى السطح وسمعناه ينادى
« بيرتا ! » ورأيناه يقترب منها ، ثم صرخت وقفزت
ورقدت فى اللحظة التالية بلا حراك على الأرض .
- ميتة ؟

- ميتة ! أجل ميتة كالحجارة التى انتشر عليها
دمها ومخها • كان شيئا رهيبا !

- هل مات أحد آخر ؟

- كلا • ولكن •

- ولكن ماذا ؟

- مستر ادوارد المسكين ! البعض يقول انه حكم
عادل على تكتمه على زواجه الاول ورغبته فى الزواج
بأخرى ، ولكننى أشفق عليه •

- قلت انه مازال حيا ••

- أجل ، ولكن كثيرين يعتقدون أن الموت كان
أفضل له •

- لماذا ؟ كيف ؟

وسرى الدم باردا فى عروقى •

- انه ضرير !!

لقد خفت أن يكون الأمر أسوأ من ذلك . . لقد
خفت أن يكون قد فقد عقله . وجمعت قواى لأسأل
سبب معاناته :

- كان السبب شجاعته وعطفه . لم يرد أن
يفادر المنزل حتى يخرج كل واحد قبله . وأثناء نزوله
السلم الكبير ، سقط السطح . ولقد انتشلوه من تحت
الاطلال ، حيا ، ولكنه كان مصابا بشكل سيء ،
فتعطلت إحدى عينيه وسحقت إحدى يديه فاضطر
الطبيب أن يقطعها في الحال . وفقد بصر العين
الأخرى أيضا . .

- أين هو ؟ أين يعيش الآن ؟

- فى فرندين ، وهو منزل ريفى فى المزرعة التى
يمتلكها على بعد ثلاثين ميلا تقريبا .

- ومن معه ؟

- اثنان من الخدم الكبار فى السن . لقد رفض
أن يكون لديه أكثر . يقولون انه محطم تماما .

- هل لديك أى نوع من العربات ؟

- لدينا عربة جميلة جدا ياسيدتى ..

- أرجو أن تجهزها حالا ، وإذا استطاع السائق

أن يوصلنى الى فرنديين قبل الظلام اليوم ، سأدفع لك
وله ضعف ما تطلب عادة ..

الفصل الثانى والأربعون

سحر فى هذه الساعة

كان المنزل فى فرنديين عبارة عن مبنى متوسط الحجم ، مختبئ فى عمق الغابة ، وكان مستر روتشمستر يتكلم عنه دائما وكان يذهب اليه فى بعض الأحيان . . كان والده قد اشتراه مع المزرعة من أجل الصيد . وكان يرغب فى تأجيرها ولكنه لم يجد من يرغب فيه بسبب موقعه غير المريح وغير الصحى . لذلك ظل مهجورا غير مفروش ، فىسا عدا حجرتين أو ثلاثا كان يستخدمها المالك كاستراحة عندما يذهب هناك للصيد .

كان الوقت قبل الفسق والسما كثيبة. والريح باردة مع رذاذ مطر مستمر . صرفت العربية ومشيت الميل الأخير . وحتى أول المزرعة لم أر أى شئ من المنزل ، لأن الأشجار تنمو بكثافة ، والظلام من حولها . وأخيرا وقفت فى باحة أمام المنزل أراها بالكاد فى الضوء الخافت . . لم تكن هناك أزهار ، ولا حديقة ، والكل ساكن ، فيما عدا سقوط المطر الرقيق .

فسالت نفسى :

— هل توجد حياة هنا ؟

أجل ، توجد حياة بشكل ما . اذ سمعت حركة ، وانفتح الباب الأمامى الضيق . فتح ببطء ، وخرج منه رجل ظهر فى ضوء الشفق ، ووقف على احدى درجات السلم . . رجل بلا قبعة . . وبسط يده ليرى اذا كانت تمطر . . وبرغم العتمة ، فقد عرفته انه سيدى ، ادوارد روتشستر ، هو بنفسه . . .
توقفت برهة ممسكة أنفاسى ، ووقفت أراقبه . .

أتفحصه ، وأنا مختفية .. ولكن آه ! .. انه لن يرانى !

كان قوامه هو نفسه ، قويا كما كان دائما .
ولا تزال مشيته معتدلة وشعره لا يزال أسود ولم تتغير
ملامحه . ولكنى رأيت تغيرا فى وجهه : كان يبدو
يائسا ، مثل طائر أو حيوان مفترس قد أودى وحبس
فى القفص ، وحظر الاقتراب منه .

وهبط الدرجة الوحيدة ، وتقدم ببطء نحو
العشب . ثم توقف ، وكأنه لا يدرى أى طريق يتجه .
فرفع يده وتطلع الى السماء وتجاه الأشجار . فرأيت
أن كل شيء بالنسبة له كان ظلاما ..

واقترب منه فى هذه اللحظة جون الخادم

وقال :

.. هل ستأخذ ذراعى ياسيدى ؟ .. سيسقط
مطر غزير . اليس من الأفضل أن تسود الى الداخل ؟

فاجاب :

- دعنى وحدى !

ودخل جون دون أن يلاحظنى . وبعد أن حاول
مستر روتشستر بلا جدوى أن يتجول .. تحسس
طريقه راجعا الى المنزل .

فاقتربت الآن ، وطرقت الباب ، وفتحت زوجة
جون . فرجعت للخلف وكأنها رأت شيئا .

هدأت من روعها وتبعثها الى المطبخ ، شارحة فى
كلمات قليلة أننى قد سمعت لتوى ما قد حدث منذ
تركى لثورنفيلد . وفى هذه اللحظة رن الجرس فى
غرفة الجلوس .

ملأت الخادم كوبا بالماء ووضعتها على صينية مع
بعض الشموع . فسالت :

- هل لهذا دق الجرس ؟

- أجل ، أنه يستخدم الشموع عند حلول
الظلام ، رغم أنه أعمى .

- اعطنى الصينية سأحملها أنا له .

وأخذتها من يدها . فاهتزت من يدى وانسكب

بعض الماء من الكوب ودق قلبى عاليا وسريعا . وفتحت
زوجة جون الباب وأغلقتة خلفى .

لم تكن غرفة الجلوس تبدو مبهجة . وكانت
هناك نار مهملة صغيرة تشتعل فى المدفأة ، وينحنى
فوقها الأعمى صاحب الغرفة . ويرقد فى أحد الجوانب
بيلوت كلبه العجوز . ولكنه قفز وركض الى يكاد
يقلب الصينية من يدى . فوضعتها على المائدة وقلت
للكلب بلطف :

- انزل على الأرض !

فالتفت مستر روتشستر ليرى سبب الازعاج ،
ولكنه أعاد رأسه ثانية متذكرا ضعفه وقال :

- اعطنى الماء !

فاقتربت وتبعنى بايلوت وهو لا يزال منفعلا .

فقلت ثانية :

- انزل يا بايلوت !

فتوقف والماء فى منتصف الطريق الى شفتيه

وأخذ يتسمع • ثم شرب ووضع الكوب جانبا •
وسال :

— من هذه ؟ من هذه ؟ أجيبني •• تكلمي ثانية !

فاجبت :

— بايلوت يعرفني ، وجون وزوجته يعرفاني ،
لقد جئت لتوى !

فرد يده بحركة سريعة • ليري أين أقف ، فلم
يلمسنى • فوضعت يدي في يده • فقال :

— أصابعها ! جين ؟

وأمسك بذراعي وكتفي وخاصرتي •

— هذا شكلها •• هذا حجمها ••

فاضفت قائلة :

— وهذا صوتها • انها كلها هنا : قلبها أيضا •

بارك الله لك ياسيدي ! أنا سعيدة لأكون بالقرب منك
ثانية !

- انك حقيقية ؟ انك جين البشرية فى مجموعها ؟
انك متأكدة من ذلك ؟

- أعتقد هذا باخلاص يامستر روتشستر .

- ولكن كيف يمكنك أن تظهرى فى هذه
الأمسية المظلمة فى غرفتى المنعزلة فجأة ؟ مددت يدي
لأخذ كوب الماء من الخادمة ، فتعطيه أنت لى ، سألت
سؤالا ، وسمعت صوتك بأذنى .

- لأننى أتيت بالصينية بدلا من زوجة جون .

- يوجد سحر فى هذه الساعة . من يمكن أن
يصف الحياة المظلمة اليائسة التى أمضيتها فى الشهور
الماضية ؟ لا أفعل شيئا ، لا أتوقع شيئا ، وأعانى فقط
أسى لا نهائيا . . وأحيانا كانت تعصرنى رغبة مجنونة
لرؤية عزيزتى جين مرة أخرى . كيف يمكن أن تكون
جين معى ؟ ألن تذهب فجأة كما جاءت ؟

كنت متأكدة من أن الاجابة العملية أفضل له فى

هذه الحالة الذهنية ، فسأله متى يتناول عشاءه
فقال :

— أنا لا أتناول العشاء مطلقا .

— ولكنك ستتناول بعضا منه الليلة . فانا

جائعة ، وأتوقع أنك كذلك .. ولكنك تنسى فقط .

ناديت زوجة جون ، وفي الحال أعد الطعام على
المائدة ، وأزدت نار المدفأة فأصبحت أكثر بهجة .
وكنت منفعلة وتحديث اليه أثناء العشاء وبعده لمدة
طويلة في متعة وراحة ، بلا احساس بالارتباك ..
وكنت سعيدة معه لأنى أعرف انى أناسبه ، فجلب ذلك
نورا لكل طبيعتى . ورغم أنه كان أعمى ، الا أن
الابتسامات بدأت تضى وجهه ، وتزيل عنه ملامح
المرارة .

— مع من كنت طوال هذه المدة يا جين ؟

— لن تعرف هذا منى الليلة ، ياسيدى . يجب
أن تنتظر الى الغد . والآن سأتركك . لقد كنت على

سفر خلال الأيام الثلاثة الماضية ، وأعتقد أنني
متعبة . تصبح على خير .

- كلمة واحدة يا جين . هل كان بالمنزل الذي
كنت فيه سيدات فقط ؟ فضحكت ، وخرجت ..
وهنا وجدت الوسيلة التي أحركه بها ، وأنزعه
بها بعيدا عن حزنه .. !

الفصل الثالث والأربعون

من أحبه أكثر

وسمعتة في صباح اليوم التالي ينزل الطابق السفلي مبكرا جدا . وعندما نزل الخدم ، سمعت السؤال : هل مس اير هنا ؟ ، ثم أى غرفة حلت بها ؟ هل استيقظت ؟ اذهبي واسألها اذا كانت تريد شيئا ، ومتى ستنزل .

ودخلت غرفة الافطار بهدوء جدا ، ورأيتة قبل أن يكتشف حضوري . كان قد جلس على كرسيه ، وخطوط الحزن تعلم على ملامحه القوية . وقلت :

— انه يوم مشرق ياسيدى • لقد ولت الأمطار •
يجب أن تتمشى فى الخارج •

لقد حركت فيه الحياة ، فابتسم •
وقضينا معظم الصباح فى الخارج • وبعد مدة
طلب منى أن أخبره بتجاربى خلال العام المنصرم ••
وبدأت قصتى ، ولكننى خفت وصف الأيام الثلاثة
التي تسكنت فيها ••

وقال لى بأنه كان لايجب أن أتركه هكذا بدون
أى شيء يساعدننى على الحياة •• وكان متأكدا من
أننى قاسيت أكثر مما اعترفت به له •

فاجبت :

— حسنا ، مهما كانت معاناتى فهى لم تكن
طويلة •

ثم أخبرته بأسرة ريفرز وبترحابهم بى وبكل ما
تبع ذلك •

— اذن ، سانت جون هو ابن عمك ؟

- أجل

- انك تتكلمين عنه كثيرا . هل تحبينه ؟

- انه رجل ممتاز . فلا يمكن الا أن أحبه .

- رجل ممتاز . هل هو رجل في الخمسين مثلا .

- سانت جون في التاسعة والعشرين فقط
ياسيدي .

- هل هو شخص غبي . قصير ، قبيح ؟

- انه رجل وسيم ، طويل ، أشقر ، له عيون
زرقاء .

- لكن عقله ؟ ربما خفيف نوعا ما ؟

- انه قليل الكلام ، ياسيدي ، ولكن ما يقوله
يستحق الانصات دائما . انه رجل ذكي حقا .

- هل تحبينه يا جين ؟

- أجل يا مستر روتشستر أحبه . لكنك
سالتني ذلك من قبل .

بدأت الغيرة تتعلق به ، ولكن لسعتها كانت
تعيده للحياة .

- هل كان يزورك دائما فى مدرستك ؟

- يوميا .

- كان لك بيت بجوار المدرسة ، كما قلت ، هل
جاء اليك هناك ليراك ؟

- أحيانا .

- فترة سكوت .

- هل كان يقضى وقتا طويلا مع الأسرة عندما
كنت تعيشين معهم ؟

- أجل ، لقد درسنا فى نفس الغرفة .

- ماذا درستما ؟

- درست اللغة الألمانية فى البداية .

- هل علمك ؟

- انه لا يفهم الألمانية . لقد علمنى قليلا من
الهندوستانية .

- ريفرز درس لك اللغة الهندوستانية ؟
- أجل ، يا سيدى .
- واختاه أيضا ؟
- كلا ، أنا فقط .
- هل طلبت التعلم ؟
- كلا ، رغب هو أن يعلمنى ..
- لماذا ؟ وما فائدة اللغة الهندوستانية لك ؟
- كان ينوى أن أذهب معه الى الهند .
- أراد أن يتزوجك ؟
- لقد طلب منى أن أتزوجه .
- هذه دعوة لازعاجى !
- عفوا ياسيدى . لقد طلب بالفعل وكان شغوفاً
فى حشى على ذلك .
- مس اير ، يمكنك أن تتركينى . اذهبنى
وتزوجى مستر ريفرز هذا .
- انه لن يكون زوجى مطلقا . انه لا يحببنى كما
تظن .. انه يريدنى فقط لأنه علمنى ، ويعتقد يأننى

ساكون زوجة مناسبة لمبشر ديني .. انه طيب وعظيم
ولكنه بارد جدا بالنسبة لي . هل يجب أن أترك
ياسيدي لأذهب اليه ؟!

- جين ، هل هذه هي الأوضاع على حقيقتها ؟

- بلا ريب ياسيدي .

- هل ترغبين أن تكونا أصدقاء ؟

- أجل يا سيدي .

- آه ، جين ، ولكنني أريد زوجة .

- حقا ياسيدي ؟

- أجل .

- اختر اذن يا سيدي .. من تحبك أكثر ..

- ساختار على الأقل .. التي أحبها أنا أكثر .

جين هل تتزوجينني ؟

- أجل ياسيدي .

- رجل أعمى فقير ، ستقودين طريقه بيدك ؟

- بكل صدق ياسيدي .

ثم قال بعد قليل :

- جين . شيء غريب حدث لى منذ أيام قليلة .
اعتقد أنه كان ليلة الاثنين الماضى . لقد سيطر على
اعتقاد بانك مت ، حيث لم أستطع العثور عليك .
وفى تلك الليلة بدأت أصلى لأموت أنا أيضا .
اذ شعرت بأن عقابى قد طال بما فيه الكفاية : فطلبت
من الله أن ينهيه . وتفجرت رغباتى من شفتى فى
كلمات هى .. « جين ! جين ! جين ! » ..

ستعتقدين أننى تخيلت أشياء ، ولكن ما أقوله
لك الآن ، حقيقى .. عندما أنادى ، سمعت صوتا
هاتفا .. مجيبا .. لا أدرى من أين : « انى قادمة
انتظرنى » . وبعد لحظة سمعت الكلمات .. « أين
أنت ؟ » همسا مع الريح . اعتقد أننا التقينا بالروح ..

الفصل الرابع والأربعون

النهاية

تزوجت مستر روتشستر فى هدوء ، بعد ذلك
بأيام قليلة . وكتبت فى الحال الى أولاد عمى أخبرهم
بما تم . فوافقت ديانا ومارى على عملى بدون تردد .
أما كيف استقبل سسانت جون الخبر ، لا أدرى .
لم يجب على الرسالة التى أرسلتها بهذا الخصوص . .
وبعد ستة شهور كتب لى بهدوء وبعطف ، ولكن
بدون أن يذكر اسم مستر روتشستر . وظل يكتب
بانتظام ، ولكن ليس بكثرة ، من الهند ، حيث أصبح
يكرس حياته لعمله .

وفى الحال ذهبت لأرى أديل الصغيرة بالمدرسة .
وملأتنى فرحتها الشديدة لرؤيتى بالعطف . كانت
تبدو شاحبة ونحيفة . وجدت قوانين المدرسة شديدة
على طفلة فى سنها ، فأخذتها معى للبيت الى أن أستطيع
أن أجد لها مكانا تربويا أفضل . وعندما تركت المدرسة
وجدتها رفيقة سارة ، لطيفة .

ظل مستر روتشستر ضريرا لمدة سنتين
بعد زواجنا . ثم ، فى صباح أحد الأيام ، وأنا أكتب
رسالة يملئها على ، قال لى :

- جين ، هل ترتدين حلية لامعة حول رقبتك ؟
كنت أرتدى سلسلة ذهبية فاجبت :

- أجل !

- وهل ترتدين ثوبا أزرق فاتحا ؟

وكننت . فأبلغنى بأنه من فترة وهو يتخيل أن
سحب الظلام تنحسر عن احدى عينيه ، والآن أصبح
متأكدا .

وذهبنا سويا الى لندن . وزار طبيب عيون مشهور ، ومع الوقت استرد بصر عين واحدة . لم يكن يرى بوضوح تام ، ولكن عندما حمل ابنه لأول مرة على ذراعيه ، استطاع أن يرى أن الولد له نفس عينيه كما كانتا عليه من قبل ، واسعتين ساطعتين وسوداوين ..

ديانا وماري ريفرز تزوجتا وتحضران لزيارتنا كل سنة . وزوج ديانا كان ضابطا في البحرية ، وزوج ماري كان رجل دين زميلا لأخيها في الدراسة . وسانت جون ظل غير متزوج . انه لن يتزوج الآن .. ودلت الرسالة الأخية التي وصلتني منه بكل وضوح أن عمله في هذه الدنيا قد انتهى تقريبا . وهو لا يخشى الموت ، وستأتيه النهاية كما كان يرغب .

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة :	٥
الفصل الأول : جيتسهيله	٩
الفصل الثاني : الغرفة الحمراء	١٨
الفصل الثالث : المرض	٢٧
الفصل الرابع : مستر بروكلهريست	٣٨
الفصل الخامس : رحلة بالعربة	٤٦
الفصل السادس : ملجا لودود لليتيمات	٥١
الفصل السابع : هيلين بيرنز	٦٥
الفصل الثامن : زيارة مستر بروكلهريست	٧٣
الفصل التاسع : مس تمبل	٨١
الفصل العاشر : وفاة هيلين	٨٨

- ٩٥ . الفصل الحادى عشر : اعلان عن وظيفة
- ١٠٢ . . . الفصل الثانى عشر : فى ثورنفيلد
- ١٠٨ . . . الفصل الثالث عشر : ضحك غريب
- ١١٧ . . . الفصل الرابع عشر : فى الطريق الضيق
- الفصل الخامس عشر : محادثة مع مستر روتشستر . . . ١٢٦
- ١٢٦ . . . الفصل السادس عشر : الحريق !
- ١٤٧ . . . الفصل السابع عشر : جريس بوول
- ١٥٦ . . . الفصل الثامن عشر : حفلة منزلية
- ١٦٢ . . . الفصل التاسع عشر : فى غرفة الاستقبال
- ١٧١ الفصل العشرون : قراءة البخت
- ١٨٢ الفصل الحادى والعشرون : العرافة
- ١٩٩ الفصل الثانى والعشرون : صرخة فى الليل
- ٢٠٩ الفصل الثالث والعشرون : نور الصباح
- ٢٢١ الفصل الرابع والعشرون : اخبار من جيتسهيد
- ٢٣٠ والفصل الخامس والعشرون : سر مسز ريد
- الفصل السادس والعشرون : العودة الى ثورنفيلد . . . ٢٤١

- ٢٤٦ الفصل السابع والعشرون : هبوب العاصفة
- ٢٥٦ . الفصل الثامن والعشرون : الطرحة الممزقة
- ٢٦٣ . الفصل التاسع والعشرون : ايقاف الزواج
- ٢٧٠ . الفصل الثلاثون : قصة منزل روتشستر
- ٢٨١ . . الفصل الحادى والثلاثون : هروب
- ٢٨٤ . . الفصل الثانى والثلاثون : اليأس
- ٢٩٤ . الفصل الثالث والثلاثون : عائلة ريفرز
- الفصل الرابع والثلاثون : ديانا ومارى وسانت
- ٣٠٧ . . . جون
- ٣١٤ . الفصل الخامس والثلاثون : مدرسة القرية
- ٣١٨ . . الفصل السادس والثلاثون : الوريثة
- ٣٢٤ . . الفصل السابع والثلاثون : أبناء عمتى
- ٣٣٣ . الفصل الثامن والثلاثون : عودة مارى وديانا
- ٣٤٠ . الفصل التاسع والثلاثون : «جين! جين! جين!»
- ٣٤٨ . . . الفصل الأربعون : الاحلال المحترقة

- ٣٥٣ . . الفصل الحادى والأربعون : الضرير
 ٣٦١ الفصل الثانى والأربعون : سحر فى هذه الساعة
 ٣٧٠ . . الفصل الثالث والأربعون : من أحبه أكثر
 ٣٧٧ . . الفصل الرابع والأربعون : النهاية

● اقرأ في هذه السلسلة :

- ١ - أوليفر تويست :
 - تأليف : تشارلس ديكنز
 - ترجمة : مختار السويفي
- ٢ - الآمال الكبرى :
 - تأليف : تشارلس ديكنز
 - ترجمة : مختار السويفي
- ٣ - ثورة على السفينة بونتي :
 - تأليف : وليم بلاي
 - ترجمة : مختار السويفي
- ٤ - مغامرات شيرلوك هولمز :
 - تأليف : سير آرثر كونان دويل
 - ترجمة محمد العزب موسى
- ٥ - المغامرات المرحية لروبن هود :
 - تأليف موارد بابل
 - ترجمة : نادية فريد

٦ - الفـاز :

- تأليف : ادجار الان بو
- ترجمة : نادية فريد

٧ - عائلة من سويسرا :

- تأليف : يوهان فايس
- ترجمة : سناء صليحه

٨ - مغامرات توم سوبر :

- تأليف : مارك توين
- ترجمة : مختار السويفى

٩ - مغامرات مكلمبرى فين :

- ترجمة : مختار السويفى
- تأليف : مارك توين

١٠ - رحلة كون تيكى :

- تأليف : ثور هايردال
- ترجمة : محمد العزب موسى

١١ - حكايات من شكسبير (١) :

- تأليف : وليم شكسبير
- ترجمة : الشريف خاطر

١٢ - المزيف :

- تأليف : روبرت أونيل
- ترجمة : صبرى الفضل

١٣ - المخطوف :

- تأليف : روبرت لويس ستيفنسون
- ترجمة : صبرى الفضل

١٤ - الفرسان الثلاثة :

- تأليف : الكسندر دumas
- ترجمة : صبرى الفضل

١٥ - الأرض الطيبة :

- تأليف : بيرل يك
- ترجمة : صبرى الفضل

١٦ - حول العالم فى ثمانين يوما :

- تأليف : جول فسيرن
- ترجمة : صبرى الفضل

١٧ - رحلة الى مركز الأرض :

- تأليف : جول فيرن
- ترجمة : صبرى الفضل

١٨ - سجين زندا :

تأليف : أنتوني مور

ترجمة : محمد العزب موسى

١٩ - انا كارنينا :

تأليف : ليو تولستوى

ترجمة : محمد العزب موسى

٢٠ - جين اير :

تأليف : شارلوت برونتى

ترجمة : صبرى الفضل

٢١ - مرتفعات وذرنج :

تأليف : اميلى برونتى

ترجمة : صبرى الفضل

٢٢ - رجال عظام ونساء عظيمات :

تأليف : ليزلى ليفيت

ترجمة : مختار السويفى

٢٣ - دافيد كوبر فيلد :

تأليف : تشارلس ديكنز

ترجمة : مختار السويفى

٢٤ - حكاية مدينتين :

- تأليف : تشارلس ديكنز
- ترجمة : حسين البنهاوى

٢٥ - أوقات عصيبة :

- تأليف : تشارلس ديكنز
- ترجمة : د. على كامل شحاته

٢٦ - مذكرات بيكويك :

- تأليف : تشارلس ديكنز
- ترجمة : د. أنور شتا

٢٧ - قوم جونس :

- تأليف : هنرى فيلدنج
- ترجمة : نادية فريد

٢٨ - الزنقة السوداء :

- تأليف : الكسندر دumas
- ترجمة : صبرى الفضل

٢٩ - بعيدا عن الناس :

- تأليف : توماس هاردى
- ترجمة : محمد عبد الحميد الجمال

٣٠ - العقل والعاطفة :

• تأليف : جين أوستن

• ترجمة : صبرى الفضل

٣١ - الكبرياء والهوى :

• تأليف : جين أوستن

• ترجمة : صبرى الفضل

٣٢ - حكايات من شكسبير (٢) :

• تأليف : وليم شكسبير

• ترجمة : الشريف خاطر

٣٣ - ذات الرداء الأبيض :

• تأليف : ويلكى كوليز

• ترجمة : نادية فريد

٣٤ - جزيرة الكنز :

• تأليف : روبرت لويس ستيفنسون

• ترجمة : مختار السويفى

٣٥ - كنوز الملك سليمان :

• تأليف : سير رايدر هاجارد

• ترجمة : مختار السويفى

- ٣٦ - دكتور جيكل ومستر هايد :
 • تأليف : روبرت لويس ستيفنسون
 • ترجمة : مختار السويفي
- ٣٧ - قلعة الخطر :
 • تأليف : ماري ستورات
 • ترجمة : صبرى الفضل
- ٣٨ - ابناء الغابة الجديدة :
 • تأليف : كابتن ر ن • ماريات
 • ترجمة : نادية فريد
- ٣٩ - ثلاثة رجال فى قارب :
 • تأليف : جيروم ك • جيروم
 • ترجمة : د • على كامل شحاته
- ٤٠ - اللؤلؤة :
 • تأليف : جون شتاينبك
 • ترجمة : محمد عبد الحميد الجمال
- ٤١ - آخر أيام بومبى :
 • تأليف : لورد ليتون
 • ترجمة : صبرى الفضل

- ٤٢ - شجرة الجكاراندا :
 • تأليف : ه . ا . بيتس
 • ترجمة : محمد عبد الحميد الجمال
- ٤٣ - كيبس :
 • تأليف : ه . ج . ويلز
 • ترجمة : عبد الغنى داود
- ٤٤ - من الأرض الى القمر :
 • تأليف : جول فيرن
 • ترجمة : صبرى الفضل
- ٤٥ - اول رجال على سطح القمر :
 • تأليف : ه . ج . ويلز
 • ترجمة : صبرى الفضل
- ٤٦ - ارواح شريرة :
 • تأليف : هنرى جيمس
 • ترجمة : الشريف خاطر
- ٤٧ - خليج القرصان الفرنسى :
 • تأليف : دافنى دى مورييه
 • ترجمة : سعد توفيق

٤٨ - قصص قصيرة من الأدب العالمي (١) :

• تأليف : نخبة من الأدباء العالميين

• ترجمة : مى التلمسانى

٤٩ - أيفان هو :

• تأليف : سير والتر سكوت

• ترجمة : صبرى الفضل

٥٠ - قصص قصيرة من الأدب العالمي (٢) :

• تأليف : نخبة من الأدباء العالميين

• ترجمة : محمد العزب موسى

٥١ - قصص قصيرة من الأدب العالمي (٣) :

• تأليف : نخبة من الأدباء العالميين

• ترجمة : محمد محمد العزب موسى

٥٢ - مون فليت :

• تأليف ج . ميدفوكنر

• ترجمة : مختار السويفى

٥٣ - ابكى يا بلادى الحبيبة :

• تأليف : آلان باتون

• ترجمة : محمد العزب موسى

٥٤ - مزرعة الحيوان :

- تأليف : جورج أرويل
- ترجمة : صبرى الفضل

٥٥ - هي او عائشة :

- تأليف : سير رايدر هاجارد
- ترجمة : صلاح عز الدين

٥٦ - شيرلوك هولمز (٧ قصص) :

- تأليف : سير آرثر كونان دويل
- ترجمة : نادية فريد

٥٧ - الكونت دى مونت كريستو :

- تأليف : الكسندر دumas
- ترجمة : صبرى الفضل

٥٨ - سيلاس مارتر :

- تأليف : جورج اليوت
- ترجمة : صبرى الفضل

٥٩ - آلة الزمن :

- تأليف : ه . ج . ويلز
- ترجمة : محمد العزب موسى

- ٦٠ - البحيرة الزرقاء :
 • تأليف : ه . دى فرت كيول
 • ترجمة : مى التلمسانى
- ٦١ - موجول :
 • تأليف : جون اليوت
 • ترجمة : مى التلمسانى
- ٦٢ - الرجل الخفى :
 • تأليف : ه . ج . ويلز
 • ترجمة : الشريف خاطر
- ٦٣ - عالم رائع جديد :
 • تأليف : الدوس هكسلى
 • ترجمة : الشريف خاطر
- ٦٤ - روبرت أوف منتزو :
 • تأليف : انتونى هوب
 • ترجمة : د . على كامل شحاته
- ٦٥ - مون ستون :
 • تأليف : ويلكى كولينز
 • ترجمة : نادية فريد

مطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/١١١٤٨

I.S.B.N 977-01-3611-5